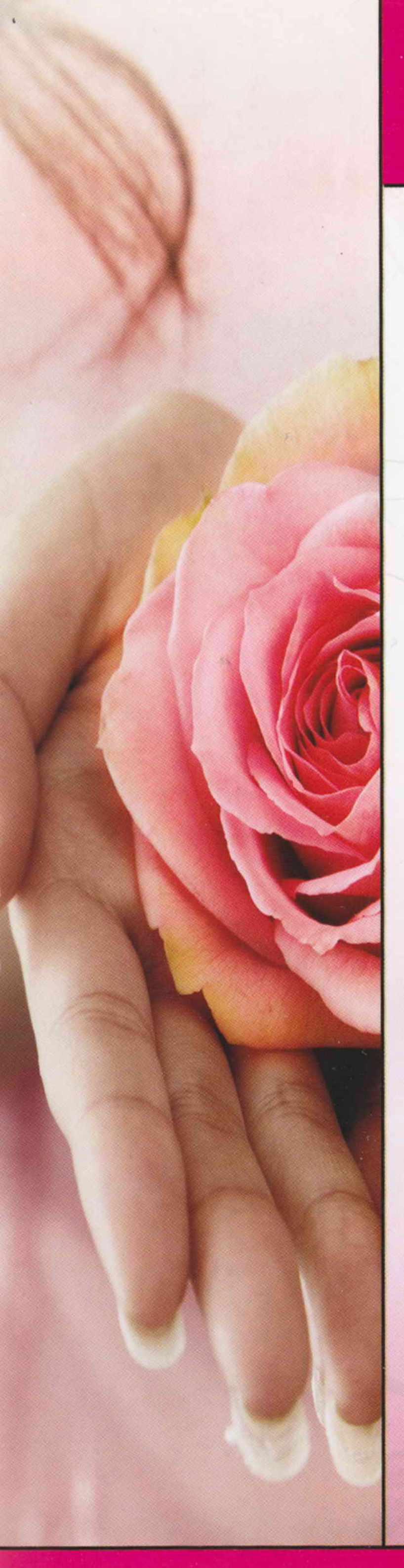
خولة القزويني



نساء ناجحات

مؤسسة البلاغ

خولة القزويني

نساء ناجحات

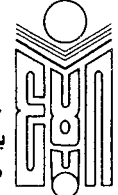


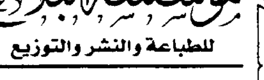
مؤسسة البلاغ

الطبعة الأولى
(مصححة ومنقحة)
١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨م

رقم الإيداع في المكتبة الوطنية في الكويت
2500 / 00343
ردمك : ISBN: 99906-83-46-8

موقع الأديبة / خولة القزويني
www.khawlaaalqazwini.com



بئر العبد - مدخل مدرسة حارة حريك الرسمية الثانية - بناية فوعاني - الطابق الأول
ص.ب : ١١-٧٩٥٢ بيروت ٢٢٥٠-١١٠٧ - هاتف : (٠٣/٥١٤٩٠٥) - تلفاكس : ٠١/٥٥٣١١٩ لبنان
الموقع الإلكتروني : www.albalagh-est.com
E-mail : Albalagh-est@hotmail.com

الإهداء

من القلب ..

إلى شعب المملكة العربية السعودية المثقف ..

أحبتي في المنطقة الشرقية

قطيف الأدباء وإحساء النخيل

وأمسيات ثقافية اقتطفناها من عمر الزمن ..

أهدي كتابي ((نساء ناجحات))

عربون محبة وتعبير وفاء ..

خولة القزويني

الكويت ٢٠٠٩

مقدمة

بعيداً عن الأضواء، وقريباً من القلوب وبين العيون تسكن لُمعة من نساء لهن بريق خاص وسحر خفي، تركن بصمة نجاح في تجاربهن وعبرة في مواقفهن، فكن قناديل محبة ونجمات هداية يبعثن في النفس توقاً إلى التحدي ودافعاً للتغيير...

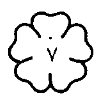
(بلا رجل)

«منيرة»

حينما يكون الزوج وباء على الأسرة يضرب الأبناء بسادية قاهرة ويهين الأم بإذلال بغيض ولا مخرج لهذا الاحتقان والتشنج إلا طلاق الأم تكافح الزوجة بمعنويات عالية كي تخلق للأبناء بيئة صالحة للنمو.

وعندما صممت (منيرة) على الطلاق رفض زوجها (معتز) قرارها بشدة متواطئاً مع أسرتها بذريعة أن الشابة عاجزة عن رعاية خمسة أبناء دون رجل، وتبرر أن الحياة باتت مستحيلة مع هذا الأب المضطرب نفسياً فهو يضرب الأبناء ويسلك سلوكاً مريضاً فيتحول البيت إلى غابة من الشقاء، حياة يكتنفها النكد والغم وهي تربأ بنفسها أن تظل تحت رحمة مخلوق يزعزع أمنها البيتي ويذيقها المرارة والرعب.

ضاقت الدنيا بمنيرة وهي في صراع مع (معتز) ولعلّها أقدر على استيعاب حالة الفراغ التي يتركها غياب رجل، فالتجربة

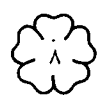


المريرة أثرت قناعاتها على مواصلة الحياة دونه، فدخلت في مواجهة ساخنة معه في المحاكم والقضاء وقضيتها معلَّقة وظروفها، تزداد تعقيداً ولم تيأس أو تحبط إنما استحثت قواها الداخلية بإصرار وشراسة كي تحمي أبناءها من قدر مظلم، تعرضت للأقاويل المغرضة من قِبل أهله وحاصروها بشتى التهديدات كي يثنوها عن قرار الطلاق حتى لا يفتضح أمرهم وبالمثل تركها أهلها في جحيم معاناتها دون سند، فإذا بها تواجه جبهات عدة، همها الأوحد إنقاذ مركب أسرتها من الغرق في بحر من المشاكل والمتاعب.

بلغ أمرها ذروة الاحتقان ولم تجد حولها عون أو ناصر فأطفالها الخمسة يتدافعون حولها كما الأمل وسط رعب أب لا يرحم وعندما أعيتها السبل انتهت إلى قرار خلعه وضحت بحقوقها المادية من نفقة ومؤخر كي تحفظ البقية من أعصابها المحطمة.

وتحررت من قيد زوج جلاد مزّق روحها شر تمزيق استعدت لتباشر حياتها الجديدة إذ جمعت ما لديها من مال واستأجرت شقة صغيرة محتضنة أبناءها تقيهم سهام التجريح والملامة بدرع حنانها.

ولبثت ترعاهم لوحدها لا يسأل عنها قريب أو بعيد، لا يستفقدهم عمّ أو خال، لا يتابعهم جد أو جدة، متهالكة على تحصينهم من كل عوامل الانهيار والدمار، تواصل ليلها بنهارها دون كلل أو ملل.



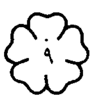
فهي مجاهدة في دنيا قاسية رسالتها النبيلة تستمد قدسيتها من عون الله ورحمته، خطبها بعض الرجال وكانت ترفض أن يقترب أي غريب من مملكتها، نهشتها الإشاعات المغرضة حينما عرفوا أنها خلعت زوجها وهي تعرض عنهم قائلة في سرها «وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً» لزمت الصمت واحتفظت بسرية حياتها.

بقي (معتز) على صلة بها متذرعاً بأبنائه وحقوقه المسلوبة ويقلقها في اتصالاته المفزعة وهي لم تبخسه ذلك الحق رغم إعراض الأبناء عنه ونفورهم الشديد منه وتحاول أن تستثير عواطفهم نحوه وتحتفظ بخيط واهن بين الطرفين خشية من الله عز وجل ومسائلته في الآخرة عن (صلة الرحم) وتوصيته بالوالدين واتفقت معه على لقاء أبنائه في بيت إحدى شقيقاته وكانت ملتزمة بهذا النظام ومستعدة له تماماً بيد أنه أخل معتذراً لأبنائه إنه مقبل على زيجة جديدة وسيتواصل معهم عبر الهاتف.

تزوج معتز واستغرق في حياته ونسي أبناءه تماماً وانحنت (منيرة» للعواصف حتى تمضي سفينتها بسلام وتكافح مجدداً في تنشئة أبنائها، فالحِمل ثقيل جداً والحياة تتعقد كلما كبر الأبناء ونضجت رؤيتهم للأشياء والناس.

يأتيها ابنها الصغير (سعيد) متذمراً:

«نحن أفقر ناس في العالم».



تمالكت نفسها:

«طالما نحن مستورين فلنشكر الله».

بسخرية يسأل:

«إذا كبرنا هل تستطيعين أن تشتري لكل واحد منّا سيارة؟»

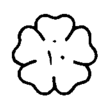
«عندما تتعلمون وتنجحون وتتخرجون وتعملون تشترون بأنفسكم كل شيء».

وتثير ابنتها سعاد حنقها:

«كل صديقاتي يرتدين ثياب باهظة الثمن متماشية مع الموضة وملابسي أنا بائسة، قديمة».

تتصلب (منيرة) ولا تهتز «إذا كان هذا قدرنا فلا اعتراض على أمر الله سبحانه».

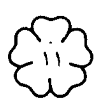
آلت (منيرة) على نفسها أن تشق طريقها بصبر وإيمان فأبناؤها ما زالوا في طور النمو وآثار الماضي نابتة في دمائهم قد حفرت في داخلهم بؤر قاتمة شوهت رؤيتهم للحياة، فالأمان الذي تصر أن تزرعه في البيت لكفيل بنفض عروقهم من هذه السموم، ستطعمهم هدأة النفس التي افتقدوها في سنينهم الأولى كي يتبدل نسيجهم ويستردون الثقة في أنفسهم، الإشباعات المادية والمعيشية متوازية مع الإحساس بالطمأنة والاستقرار وحرصها على بذر بذور الكفاح والطموح في مكوناتهم النفسية كي يعملوا على ترتيب حياتهم بشكل أفضل.



إنها بعد أن تعود من عملها، تمكث في البيت لا تغادره، تتابع مذاكرتهم، تطهي الطعام، تنظف، تكوي الملابس، ظروفها المادية لا تسمح لها بأن تطلب خادمة، فقد وفّرت مبلغ من المال لشراء سيارة مستعملة لقضاء مشاويرها وفكرت في الدروس الخصوصية واستقبلت بعض الطالبات في بيتها لتدريس مبادىء اللغة العربية المتخصصة فيها مقابل مبالغ معقولة تساهم في سد حاجات الأبناء.

مرت في أوقات عصيبة ومشاحنات عبّرت عن معاناة أبناءها هذا يطالبها بـ «الموبايل» وتلك بثوب جديد، وهذا مريض تداهمه نوبة إسهال وقيء في وقت متأخر من الليل فتضطر لتوقظ ابنها البكر ليرافقها إلى المستشفى، وابنتها التي بلغت سن التكليف الشرعي وترفض ارتداء الحجاب ومحاولاتها الحثيثة في إقناعها.. تهاون أولادها في أداء الصلاة في وقتها، شكوكها من جلوس ابنتها الصغرى وحدها في الدار تختلس النظر إليهم بارتياب، وإصرارها أن تشتري (الموبايل)، الكمبيوتر الوحيد الذي يتنازع عليه الأبناء حتى تعطّل واعتراضهم على محدودية البرامج فيه وقِدمها.. ماذا تفعل؟ هل تقطّع نفسها وتنثر أشلاءها هنا وهناك هل بإمكانها أن تتجزأ وتدفع كل جزء في ناحية لتشمل كل هذه الاحتياجات والهموم؟!

نسيهم الأب والعم والعمة والخال والخالة وكأنهم مقطوعين من شجرة، ومنيرة وحيدة، عزلاء لا تملك سوى الصبر والإرادة،



تدمع عينيها مستاءة من هذه الدنيا التي أنجبت ذئاب بشرية لا ترحم ولا تمد لها يد العون والمساعدة.

مشاكل الأبناء التربوية تعصف بها وتتلقاها بعقلية ناضجة، واعية، مستشيرة صديقاتها في هذه الأمور واتخذت من الشدة والصلابة موقفاً مقصوداً فلا تلبي لهم رغبة ولا تجيب لهم طلب اللهمّ إلا الضرورات فهي تبغض الحياة الرخوة التي تسلب الشباب قوتهم وعزمهم، فاحتملت غضبهم وتمردهم طالما كان هذا الأسلوب المتوازن خليق بأن يبني فيهم قيم الرجولة والاعتماد على النفس فهي متفاوتة بين الحنان واللطف تارة والشدة والحرمان تارة أخرى، وفي هذه المنخنقات العصبية، نجحوا وتفوقوا وكانوا لها قُرَّة عين.

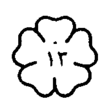
وفي أيام العطل دفعت الأولاد إلى العمل في الجمعيات التعاونية لكسب الرزق الحلال وشجعت البنات على دخول الدورات التثقيفية والتربوية، حمّلتهم المسؤولية باكراً ولقنتهم دروساً في الكفاح والعمل والصبر وشحنتهم بالتفاؤل فغداً تشرق شمس السعادة والفرح على حياتنا الكئيبة.

انصقلت شخصياتهم بين نار الحرمان ووقد الألم، البنت الكبرى تزوجها مهندس ناجح ابن عائلة طيبة ولحقتها الصغرى حيث سافرت مع زوجها إلى اسكتلندا لإعداد أطروحة الدكتوراه في طب العيون، والأولا الثلاثة أحاطوا بها كأميرة مدللة، الابن الأكبر دخل الجامعة ليدرس الحقوق والأوسط في معهد



التكنولوجيا، بقي الصغير، ذلك الصبي المشاغب الذي استنزف صبرها «سعيد» متورطاً في رفقة سيئة تحمل فكراً هداماً وعانت منيرة مع هذا الابن العصبي الكثير الشجار مع أخويه، ويتهمها بأبشع التهم «أنتِ أمّ متسلطة تقمعين حريتي» فينهال الابن الأكبر على خده بصفعة.. صراخ لا يلبث أن يتحول إلى اشتباك في الأيدي بين الإخوة، وفي إحدى المرات سقطت (منيرة) مغشياً عليها وأخذها الابن الكبير (حبيب) إلى المستشفى حيث كانت تعاني من هبوط حاد في ضغط الدم وبوادر سكر، أخذت العلاج اللازم وخرجت لتواجه معركتها الجديدة مع ابنها المتمرد.

فكرت مع ابنيها الآخرين في حلول كثيرة لانتشال سعيد من حالته العصبية التي تنتابه وتفسد سلوكه وتدفعه إلى ممارسات مدمرة لشخصه، وحينما أسرت ابنتها الصغرى في أمر (سعيد) وتعاستها الشديدة وفشلها في احتواء جموحه دعته الأخت أن يقضي صيفه في (اسكتلندا) وكانت فرحة كبيرة ابتهج لها (سعيد)، فلأول مرة سيسافر وإلى بلد عريق وجميل، جهزت له أمّه لوازم السفر واصطحبته إلى السوق لتشتري له الملابس وكل ما يحتاجه في هذه الرحلة الطويلة التي ستستغرق ثلاثة شهور، ودعته وهي تدعو الله سبحانه أن يهدئ سره ويطمئن نفسه وأخذت تتواصل مع ابنتها في مراقبة سلوكه فقد احتضنه زوج الأخت وأخذه في رحلات سياحية ممتعة.



«ليس سوى الضغط النفسي والضجر يا أمي فأخي بدا رائعاً وحميماً ويذكر أفضالك بكل حب».

هكذا أسرت ابنتها عبر الهاتف.

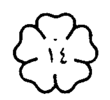
ألقى (سعيد) نظرة على جامعات اسكتلندا ولندن وأيرلندا وهو يقطع المسافات ويجوب السماء في شوق إلى هذا العالم الساحر، وشجعه زوج أخته على الالتحاق بإحدى الجامعات مستقبلاً.

«لابد أن تثابر وتجتهد وتنجح وتترك حياة اللهو واللعب إن أردت أن تحقق نجاحاً في حياتك».

هكذا حدثه (أحمد) زوج أخته بحب بعد أن توسم فيه نبوغاً استثنائياً.

عاد (سعيد) بعد الإجازة بروحية مسالمة وبنفس متفائلة قد تغلّب على خصومة ذاته، واستفاق من غيبوبة طارئة، ألقى نفسه في حضن أمّه وصارحها بشفافية وحنان أنه قد قرر أن يعوضها عن أيام الأذى والشقاء التي سببتها رعونته وتهوره.

وأخذ يثابر بجد واجتهاد وصوب اتجاهه نحو هدف كبير وما هي إلا سنتان حتى تخرج من الثانوية العامة وكان من أوائل الطلبة في البلد وبعثته الوزارة إلى لندن ليدرس الطب وقد أذهل الأطباء في الجامعة بعقليته الفذة وذكائه الحاد وقدرته على تخطي أصعب المراحل، وتخرج سعيد طبيباً جراحاً ذائع



الصيت والشهرة، أجرى بحثاً طبياً حول علاج لمرض السرطان فإذا بصوره وأخباره تحلّق في الآفاق وأخذ الأهل والأقرباء المتباعدين يتزلفون إلى (منيرة) ويتوددون إليها وكل منهم ينسب هذا الجراح العظيم إليه.

دارت السنوات دورتها، والأبناء يتزوجون هم ثمار هذه الأمّ العصامية التي عاشت بلا رجل ونجحت في تربية أبناءها الذين تحولوا إلى رموز بارزة في الوطن.

وها هي (منيرة) تعيش في بيت فخم يضج بالأحفاد وهم يتقافزون في مرح وحبور يوقدون في عروقها الباردة دفء الحياة.

نــار الضُـرَّة

«إينـاس»

(إنه الجـحـيم الذي يتـقـد في قلب امـرأة غـضـة ذابت في زوجـهـا حـتى فنت فـيـه لتكتشف بعد حين أن طقوس خضـوعـهـا أشـبه بالـسـراب تحـتسـبـه جـهـاداً يدخلهـا الجنة، لكن صـبـرهـا وطويتـهـا النقـيـة أنقذا حيـاتهـا من الانهيـار وقـوضـا كل أسـبـاب الفـرقة التي تشـعل فتـيلها نار الـضُـرَّة. فـماذا فـعلت إينـاس لتنجح في هذا الموقف العصيب؟!).

كـانت إينـاس الأخت الصـغـرى لثـلاث بنات، خـجـولـة، هـادئة متعففة باستحقارها حتى مكائد البنات وأحـابيلهن في اصطياد الشباب، جـمالهـا المتميز بالعـفوية وسـمـهـا بميسم الطهر والبراءة، همومـهـا المتسامية عن ذاتيتها الفطرية التي يفـترض أن تقلق كل أنثى صـغـيـرة.. إذ يقلقـهـا وقت صـلاتهـا أن يدركها وهـي في غـفلة من أمـرها أكثـر من قلقـهـا على جمـالهـا أن تبخـسـه النـاس حـقـه، يهمـهـا أن تكون مرضيـة الأفعـال والأقوال أكثـر من همها بتـجـاهل

الآخرين لأناقتها وبدت بين أختيها شاذة ذلك الشذوذ الجميل اللافت والمفعم بالمهابة.

أختها الكبرى فيها من الأنانية والسوء تستولي على ملابسها الجديدة وتقتحم خصوصياتها بإذعان من صمتها الخجول فترضخ ملبية طلبها لا تشوب نفسها شائبة بغض أو زعل إنما تبتسم تلك الابتسامة المتصالحة مع الآخرين في وئام وود.

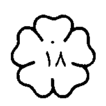
تهب كل ما تملك لأختيها طواعية في إيثار ومحبة رغم سخريتهما من سذاجتها وطيبة قلبها، تشفق عليها الأم «ما هذا الضعف يا إيناس؟ لِمَ تفرطي بأشيائك يا ابنتي؟».

ويضيء ثغرها بضحكة خلابة «نحن أخوات يا أمي ولا ضير في أن نتبادل الثياب والمجوهرات».

تتزوج (إيناس) قبل أختيها وهي في السادسة عشرة من رجل يكبرها بعشر سنوات، يعمل في السلك العسكري قد فرض عليها ضوابط مشددة عبّرت عن سمات هويته، لكنها تتقن دورها الأنثوي الحالم ببراعة استولت على قلب الزوج وتوجته ملكاً على فؤادها، غمرته بعاطفة جياشة وحنان فياض.

أقفل عليها الزوج «محمود» الباب والنوافذ وفرض عليها عزلة خانقة وأملى عليها إرادته فما يرف لها جفن أو ينبض في قلبها نبض إلا بإشارة منه.

وأبدت له طاعة وخضوعاً نادرين، يباغتها في بعض الليالي



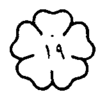
بنوباته العصبية المخيفة فتسكّن جوارحه وتليِّن قلبه عبر ظلال طلتها الوادعة تلقيها هفهفات بسمة عذبة فينساب بين أصابعها كطفل مطيع.

أنجبت الذرية وهي مقفلة على حياتها متكتمة على أسرارها تزعجها الأختين بأخبار نزوات (محمود) الغرامية وهي آخر من يعلم، لكنها تعرض في صمت بل تشحذ مخالبها كالنمرة مدافعة كلما تعرض أحد لزوجها أو نبش في حرمة بيتها سخرت أختها الكبرى «يا لكِ من معتوهة قد سجنك واستأسد عليكِ لأنك ضعيفة، مسلوبة الإرادة».

تثب كالملدوغة مستنكرة حديث أختها:

«إنها خصوصية حياتي ولا دخل لكِ فيها».

كان (محمود) يعود محملاً بآثار خياناته المتكررة وعلامات نسائه الدامغة، لكنها متجبرة في صمتها الأشم، متجاهلة عن قصد، تسمع النسوة في محيطها الأسري وهن منعمات برغد العيش تبسط الحياة كفّيها لهن بتراخي سفر، مال، حرية وهي الوحيدة من تعيش في ضنك وحرمان لا تستمتع بترفيه ولا تظفر برحلة مبهجة، تخرج من حمل وتدخل في آخر، محاطة بأطفال يأكلون عافيتها بالصراخ والمشاكسات والمطالب حتى استنزفوا طاقتها تماماً فترقد في الليل كجثة هامدة، وعند اقتراب عودته قرب الفجر تغتسل وتتعطر وترتدي أجمل ثيابها لتستقبله هاشة، باشة.



يحبها بغريزة رجل متسلّط يستولي على كل مشاعرها لذاته فلا يقتسم آخر قلبها مهما قرب منها، فهو معبودها الأول الذي يفترض أن تهيم به ليل نهار وهي متناغمة مع طبيعته منساقة لمزاجيته، وطنت نفسها على إراضائه فيخلد إليها مرتاحاً، منبسطاً بكل استئناس، حجبها عن الناس وألبسها النقاب خشية أن يراها رجل أو تقع عليها عين فضولي.

كثر سفره في الأشهر الأخيرة ولمست تغيراً في طباعه وحدة في مزاجه ونضوباً في أشواقه والقلق ينهش قلبها الهالع فلا تجد من تأمنه على سرها غير الله تقترب منه بحميمة:

«محمود حبيبي صارحني ما بك؟».

يصدها معترضعاً، انفجرت باكية.

تتوسل إليه:

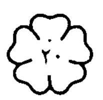
«صارحني اكشف لي عن سرك».

يرميها بنظرة غاضبة:

«اخلدي إلى النوم فلا رغبة لي في الحديث».

اتصالاته الهاتفية المختلسة فضحت ما بداخله، إنها ليست نزوة عابرة كتلك التي هضمتها بعسر، بل ثمة أمر مقلق جعله في حيرة، إنها (امرأة) من نوع ثقيل تدخل دماغ الرجل ولا تبارحه إلا إذا صدعت حياته.

وجاء بها «الزوجة الثانية» في سفرته الأخيرة بعد أن أنهى



كل الوثائق الرسمية التي تثبت إقامتها، استأجر لها شقة مطلة على البحر وأسكنها ريثما يذيع خبر زواجه كواقع مفروض على الجميع.

وكانت (إيناس) أول من تلقى الصدمة الصاعقة، أوشكت أن تنهار، مذهولة من وقع الخبر.

أبعد سنوات الحب والطاعة تكافئني بضُرَّة؟!

حرمتني فصبرت، عزلتني فرضخت، صرت لك جارية ذليلة خاضعة تحت أقدامك، وأذعنت لأوامرك التعجيزية دون شكوى وتذمر، تأتيني في الآخر بضُرَّة؟!

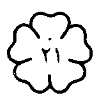
أطرق صامتاً ثم انبرى يقول:

«أحببتها وهي إحدى قريباتي، التقيتها في إحدى الفنادق صدفة وكانت تعاني من زوجها ولا أعرف كيف وقعت في حبها تطلقت ثم تزوجتها».

ويشملها غضب عاصف:

«وما النقص الذي تعانيه؟ لقد أحببتك وعشقتك وترمضت بنارك وأنا راضية، هل لأني حمقاء، صامتة، مهذبة؟ لو كنت امرأة قوية لحسبت لكرامتي ألف حساب، ولما تماديت في غيك وضلالك».

تركها (محمود) رماد...



ولملمت بقاياها المهشمة وفتاتها المحترق وانكفأت تفكر وتدور بعينيها الدامعتين حول أركان بيتها البارد حينما غادره الأمان مذ دخلت حياتها (امرأة) وعرف أهلها فانهالت عليها المكالمات كالمطارق:

«أنتِ السبب؟.

لو أعطيتيه العين الحمراء لما تمادى؟

سكوتك هو من حرضه على الخيانة؟

سلبيتك هي من دفعته إلى التهاون في كرامتك.

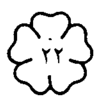
قومي، ثوري، انفعلي، واجهي، اطلبي الطلاق، اتركي بيتك، اهجريه حتى يعرف قيمتك.

إنكِ ساذجة، سلبك كل عناصر القوة المال، التعليم، الشهادة وقطع جناحيك لتبقين رهن إشارته».

وآخر طعنة شرخت قلبها نصفين صيحة أمها المدويّة في أعماقها المكدودة:

«عديمة الشخصية، منذ صغرك وأنتِ مسلوبة الإرادة، انسحابية ولهذا هجرك الرجل إلى امرأة أفضل منكِ».

أقفلت جميع هواتفها وأصمت السمع عن هجومهم الجارح وسهام نقدهم القاتلة، وتوحدت بذاتها، تفكر ملياً في أمرها ودموعها تحفر في قلبها جرحاً لا يندمل، وتساءلت ما الخيار؟ وبناتي عرائس من نور وابني الوحيد مازال في المهد؟



أطلقت زفراتها المحرورة في التياع وعيناها الذاويتان من البكاء لا تبارحا سريره الخالي، وبيت كالقبر في وحشته وصمته، تلتف حولها البنات معتنقات جسدها الممتلىء

«ماما أرجوكِ لا تبكي».

المحنة تشتد مع اندلاع غيرتها النهاشة وتفكر في لحظات شوقها حينما تعصف بكيانها فتذيب كل عيوبه من الخائلة وتحسبه فارس حياتها يغمرها دوماً بعاطفة ودلال.

تقتحم أمها وأختيها البيت بعد أن أعياهن إعراضها وسكوتها، وتجاهلها المستمر لهن.

تشتد نبرة أختها الكبرى:

«أكاد أجن يا إيناس هل أنتِ حجر؟ ألا تشعرين بفداحة الأمر؟ ألم تصرخي وتعنفيه، سجلي موقفاً إيجابياً واحداً في حياتك».

وتمسك طرف الحديث الأخت الأخرى:

«هل عرفتِ من تزوج؟ كان على علاقة بها منذ زمن، سمعت أنها امرأة جبارة يرتعد منها خوفاً ويلبي طلباتها، والشقة الفخمة المطلة على البحر التي يبلغ إيجارها...

صرخت (إيناس)



«أرجوكما كفا عن هذا الحديث السخيف، لقد انقضى الأمر وتزوج، وأنا راضيـة، طالما كـان لي بيـتي وأولادي وإطلالتـه عليّ بين ليلة وأخرى».

عنفتها الأم:

«بنصف رجل، بنصف حياة، بنصف مـعـاش، يعطيـها كل ما يملك ويرمي لكِ الفتات».

تتشبث إيناس في عنادها:

«أنا راضية بهذا االفتات وأرجوكن احترمن كرامة زوجي فهو لم يرتكب إثماً».

وتابعت الأم وهي أشد غيظاً:

«أظن محمود قد سحرك وحولكِ إلى دمية ميتة الإحساس والشعور».

«بل غسل دماغها يا أمي» قالت الكبرى وهـي تصوب نظرات لائمة لإيناس.

دافعت إيناس:

«لم أشتكِ لأحدكن ظلامتي فأرجوكن احترمن الرجل في غيابه، خصوصاً وأنكن في بيته».

خرجن خائبات، عجزن عن استثارة إيناس.



بينما ألقت (إيناس) جسدها المكدود على الكنبة، احتضنتها ابنتها الكبرى وهي تصب جام غضبها على أبيها

«أعتقد أن لهن الحق فيما قلن لأن أبي ظلمك يا أمي».

«لا أسمح لكِ بهذا الاتهام فهو أمر يخصني لوحدي».

«كيف وهو قهرك وأهانك بهذا الشكل الظالم».

«هذا حقه يا ابنتي ولن أعترض على أمر الله».

تصبّرت (إيناس) وابتلعت الغصص دون أن تدخل مع زوجها في مواجهة جديدة، بل بقت محتفظة بصورتها الوديعة التي انطبعت في ذاكرته طوال سنين العِشرة، يعود إليها فيجدها كالعروس في ليلة زفافها متبرجة، متوددة إليه بأروع فنون الغواية والغنج، تستميله بعشق وَوَلَه، قد جهزت له أشهى الطعام والبيجاما المتضوعة بالبخور دون أن تذكر سيرة ضُرتها بل أسقطتها من ذاكرتها لكي لا تعكر صفو حياتها، وكلّما حاول أن يستحضرها تقفل فمه بقبلة «أنت لي وأنا لك ولا ثالث يخدش محبتنا، في حين ضرّتها تهتاج غضباً، تتصل بها مدفوعة بفضول لاستكشاف خبيئتها وسر صمتها الذي قد تضمر نيّة سيئة أو خطة جهنمية تفسد حياتها.

وبإلحاح من (محمود) تزورها الضُرَّة في البيت وتستقبلها (إيناس) متكلفة الاحترام والحفاوة، وتلك الابتسامة المكسوفة تجترها من أعماقها المجروحة بكبرياء وأنفة والضرَّة مذهولة

فقد أعدت لها (إيناس) مائدة عامرة بأشهى الطعام قائلة لها «البيت بيتك واعتبريني أختاً لكِ نتعاهد على إسعاد هذا الرجل».

ينكس (محمود) رأسه في خجل وهو يتصاغر أمام (إيناس) يوماً بعد آخر والناس تصفها مجنونة، بلهاء، ساذجة وهي عقدت النية مصرة على أن تصون ذاتها ولا تخدشها بأفاعيل تشين إلى شخصها وعزتها وتسخط ربها.

وتشتكي إلى الله سبحانه حزنها، متقربة إليه مع تصاعد آلامها وحرمانها، خصوصاً عندما أشعلت غريمتها الحرب عليها وكشفت عن خبث سريرتها، امرأة جاءت على مطمع من الرجل، وتصرفت بابتذال وخِسة، وكلما ذهب محمود إلى (إيناس) تنهال عليه باتصالاتها المسعورة مفتعلة المشاكل والأسباب كي تسترجعه إليها مرغماً.

ويغتم (محمود) ويتباعد عنها، نادماً على هذه الزيجة التعسة فخناقاتها يومية، تنكد عليه لأتفه الأسباب مما زاده التصاقاً بإيناس وقرباً ولهفة عليها، فهي ملاذه من جحيم تلك المرأة المتغطرسة التي تطالبه بمطالب تعجيزية فضحت خطتها.

اشترى لها سيارة بعد ضغوط شديدة أفقدته فهيا كرامته وكبريائه كرجل.

حملت منه وتفننت في شتى أساليبها ومكائدها لتبعده عن



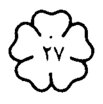
أسرته وهو ممزقاً بين البيتين وإيناس تدفعه بملء إرادتها إلى ضرَّتها تحت تبرير أنها حامل، ووحيدة، وغريبة وتحتاج إلى حنانه ومداراته.

لم تكن إيناس سعيدة بل كان الحزن طحناً خصوصاً بعدما علمت بحمل ضرَّتها، إذ يعز عليها أن تشاركها أخرى في زوجها حبيب صباها بل أخذت الأخرى تحفر لها المكائد كي يطلقها لتستأثر به وحدها، رياح المشاكل والمؤامرات تجتاح إيناس وتزلزل بيتها لكنها صامدة قوية، مصرة على البقاء لا تغادر عشها ستكافح من أجل أسرتها وستحتفظ بزوجها، لهذا كانت تنفض عنها باستمرار غبار الشائعات والأقاويل والدسائس وتمضي في طريق حياتها محتسبة أمرها على الله عز وجل.

ولدت ضرَّتها صبياً وجاء به محمود إلى أخواته ليرونه وإيناس تقبِّله وتحتضنه قائلة لهن «هذا أخوكن أحببنه كما تحببن حسام شقيقكن الأصغر».

وذهبت (إيناس) إلى شقة ضرَّتها في فترة نفاسها لعيادتها ورعايتها، وتركت خادمتها تحت أمرتها ومضت تحنو عليها وتطهي لها الطعام والشوربات وتحمم الطفل وتشتري لهما لوازم النفاس، ثم قالت لزوجها:

«ابق معها في هذه الفترة الحساسة فهي بأمس الحاجة لك».



واشترت لها سواراً من ذهب هديّة وحينما قدمتها انكبت ضرّتها على يدها تقبلها باكية:

«سامحيني يا إيناس، كم أشعر بالخجل منكِ، لقد احتقرت نفسي لأني أهنتك وجرحتك، رعيتني بحنان لم أذق له طعماً في حياتي فقد هجرتني أمي عندما كنت طفلة وربتني زوجة أبي على الضيم والعذاب».

احتضنتها إيناس مشفقة:

«اعتبريني أمكِ، أختكِ، صديقتك، يربطنا مصير واحد».

وهكذا عاشت الضرتان في نسق حياة هادىء في مأمن من شرور المهاترات التي تفرضها طبيعة العلاقة الحساسة بيد أن الزوجة الثانية بقت تتصادم مع زوجها غير متوافقة مع طباعه، تطحنها الغربة والغيرة الشديدة، طلبت منه الطلاق ولبى لها الرغبة بعد أن أخذ منها الطفل، أخذت مبلغاً من المال ورحلت,

عاد (محمود) إلى (إيناس) مستغفراً، تائباً، يلهج قلبه حباً وإيماناً وإخلاصاً وعاهدها على أن تبقى المرأة الأولى والأخيرة في حياته.



قرار آمنة الشجاع

«آمنـة»

(القرار الشجاع لا ينبع إلا من النفوس العظيمة التي راهنت على الحق، وجاهدت بصبر وخاضت التجربة المريرة بصلابة حتى الشهادة، لأنها تدرك أن الحقيقة لا تشرق في سماء الأوطان إلا عندما يدفع الأحرار دماءهم ثمناً لها.

وقرار (آمنة) الشجاع أن تناضل بالكلمة الحرة الأبية كي تضيء العقول التي أعماها الجهل والتعتيم حينما تقع أسيرة في قبضة الجلادين).

نشأت «آمنة» في بيت علم وأدب ودين، وتوفى أبيها عندما كانت طفلة في الثانية فتكفّل أخوها برعايتها وتأديبها وتعليمها، لفتت إليها الأنظار بذكائها اللامع ووعيها المتميز وإدراكها المبكر للأشياء حولها، تركت الدمى وهجرت اللعب إلى عالم القراءة والمطالعة والمعرفة فكان نبوغها مشعل هداية قاد نساء عصرها إلى النهضة والتطور في وقت كانت فلول الظلم والظلام تهيمن



على بلادها وتبطش بالمثقفين والأحرار وتنهب خيرات الشعب وتجعل من المرأة المسلمة دمية ملهاة للاستمتاع فقط، وكانت الثقافة الأصيلة مغيبة عن الواقع مستبدلة بفكر مادي فيه الكثير من السطحية والابتذال.

كبرت «آمنة» ونضجت رؤيتها وتفقهت بدينها وتسلحت بثقافة القرآن الكريم فقررت أن تشق طريق جهادها الثقافي في هذه البيئة الضبابية التي جعلت الناس في حيرة وضياع وآلت على نفسها توعية الفتيات وتنوير النساء لتستيقظ المرأة المسحوقة من سبات الجهل والضلال، أسست حلقات دينية لتعليمهن أصول الدين وفروعه وجذبت الموهوبات منهن في الأدب والشعر لتوجه أقلامهن ناحية هدف مثمر، وعملت على إلقاء محاضرات اجتماعية تربوية تعالج فيها مشاكل الفتيات في الجامعة وتقيّم أدوارهن في الحياة فالتفف حولها اليافعات لينهلن من معينها العذب ويتدربن على الخطابة كي يتحولن إلى داعيات في جميع الكليات.

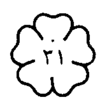
ذاع صيتها بين العائلات المحافظة فأخذ الآباء يدفعون بناتهم إلى مدرستها البيتية ليتربين في حجرها النقي أفضل تربية، بلغ نشاطها الذروة مما أقلق السلطة الجائرة التي عملت على رصد تحركاتها ومتابعة طالباتها ومريداتها فدست العيون في حلقاتها الدينية حيث نخبة مميزة من المثقفات يجتمعن لتفسير القرآن.



شرعت «آمنة» في طرح فكرة مدرسة خيريّة للفتيات من المرحلة الابتدائية وحتى الثانوية وشجعت الأهالي على التبرع لهذا المشروع والذي كان مقره في العاصمة فكانت تقطع المسافات ذهاباً وإياباً بين القرية والعاصمة من أجل متابعة المشروع وتشجيع بعض المؤسسات والتجّار على تمويله، أسست إدارة المدرسة وانتخبت من طالباتها أكفأ المعلمات وأفضلهن علماً وثقافة وأخلاقاً.

اشتهرت مدرستها بنظامها المثالي وكفاءة مناهجها وجديّة إدارتها ولبثت آمنة تشرف على المدرسة حتى وهي في منأى عنها تتابع التقارير وتتحرى الدقة في الأخبار والأعمال وتتحقق من الأمور والمشاكل بإخلاص وإتقان، ولم يثن عزمها أي عائق مهما كان جسيماً أو خطيراً، لكن عيون الأعداء حولها والوشاة يتربصون بها فهي ناجحة ولامعة وأنجزت في وقت قياسي ما عجز الآخرون عن فعله.

خرجت ذات مساء شتوي والطقس ماطر إلى العاصمة لافتتاح مهرجان ثقافي في عيد المعلم وفي طريق وعر والليل والعواصف تربك سيرها والمطر ينهمر في زخات باردة كالصقيع، وآمنة تصرّ أن تصل في الوقت المناسب، لم يستطع أخوها أن ينهها عن الرحيل ولم تقدر أمها أن تردعها عن غايتها، قد اعتادوا على شجاعتها الاستثنائية وصلابتها المذهلة، فهي لا تهاب هذه العوارض ولا تخشى المجهول، هدفها

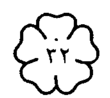


النبيل كان دوماً مصباحها الذي يضيء لها الطريق ويعبّد لها الدرب فتسلك فيه واثقة الخُطى، مطمئنة النفس وإيمانها بالله سلاحها في بيداء الحياة.

وتنشد أشعارها الحماسية في عتمة البرد وصفير الريح ينخر في العظم والمطر يعتم الرؤيا، تقود سيارتها الصغيرة المنهكة من هذا الطريق الموغل في الخطر والمتآكلة من فم السنين، تطاردها أشباح الظلام ولسانها يرتّل المعوذتين وأدعية الحفظ متوكلة على الله بيقين لا يعرفه إلا الأطهار، فلِمَا تخاف وهي تجاهد من أجل غاية أسمى؟ إنه الاستعمار الظالم حينما يسخّر أذنابه يرتعون ويلعبون في كل مكان ويعملون على قمع الحريات وسلب الكرامة وتمييع الشعوب وإغراقها في الفقر والجهل والفساد.

المرأة في بلادها أُنتهكت وتركت مطمع للعابثين دمروها كي لا يبقى للجيل باقية، وهي ستعمل ليل نهار كي تصنع امرأة جديدة ذات شخصية قوية وإرادة حُرّة وعقل يقظ وهوية إسلامية ذات أصالة وقيمة.

فلتت من قبضتهم ووصلت إلى بيت إحدى صديقاتها المعلمات سالمة ولبثت طوال الليل تصلي وتشكر الله عز وجل على نجاتها، بعد فراغها من العبادة جلست لتناول الطعام وتفاجأت بصينية حافلة بالأطايب، لكنها تورعت في أدب ولطف



جميل عن تناول هذه الأصناف فما أكلت إلا قضمات من الخبز والجبن.

«سيدتي تناول عشاءك فمازال الطعام على حاله».

مندهشة صاحبة الدار من تعففها النبيل.

«لقد شبعت والحمد لله، خيركم كثير ومبارك بإذن الله».

ما هذا الزهد الذي تبديه هذه الفتاة المشغولة الفكر، الثاقبة الرؤيا، المتعمقة في الحياة كما الفلاسفة.

وفي احتفالية رائعة ألقت «آمنة» كلمتها النارية التي ألهبت الصدور وأذهلت العقول فالتفت حولها الطالبات والمعلمات يقبلنها، يتباركن بمقدمها الكريم، يكاشفنها بما يختلج في أعماقهن، وقضت هذا اليوم في متابعة شؤون المدرسة وتوفير لوازمها وتقييم أداءها ومعالجة مشاكلها كافة، فقد تميزت الطالبات فيها بالأخلاق والتربية الصالحة والعلم والنضوج الفكري المبكر، فكان الآباء يتهافتون على هذه المدرسة لتسجيل بناتهم فيها بل ويبدون استعدادهم الكامل للتبرع مادياً لتوسعتها وتنميتها وإنشاء المزيد من المرافق فيها وكانت «آمنة» سعيدة جداً أن غرسها قد أثمر وآتى أُكُلُه لأنها فعلت كل هذا لوجه الله الكريم، ما أرادت سمعة وشهرة، ما ابتغت مالاً وجاهاً ومنصباً، فما كان لله ينمو ويزدهر وما كان للدنيا ينقص ويفتقر.



والشباب كانوا يشترطون حين الزواج أن تكون العروس خريجة هذه المدرسة لكمال فتياتها وجمال أخلاقهن.

والنظام المستبد الذي يحارب العقول النيِّرة ويطارد المثقفين أقفل هذه المدرسة وبدد حلم آمنة وعمل على مضايقتها بشتى الطرق الخبيثة، فعادت إلى القرية بدعوى من أخيها عالم الدين المتفقه الذي تزعم القرية فكان مرشدهم ومرجعهم في شؤون الدنيا والدين.

ولم يقف نشاط آمنة عند هذا الحد ولم تجزع أمام هذه العوائق الفاشلة فقد كتبت المقالات الاجتماعية التي تدعو فيها المرأة إلى النهوض من كبوة الجهل والكفر الرجعي الذي جعل منها كائن عقيم النشاط والعطاء غيبت الثقافة الجاهلية حقوقها الكاملة التي شرعها الله سبحانه وكانت آمنة متورعة عن ذكر اسمها في كتاباتها مُتخذة طبيعة أعمالها الإرشادية الهادية رمزاً نافذاً وعميقاً «بنت الهدى» لتبقى المشكاة الهادي للضائعات في دروب الضلال والحائرات في دنيا الحزن والألم، وشرعت تكتب القصص والروايات الاجتماعية بنهج إسلامي تدعو في مضامينها إلى الفضيلة والطهر والعفاف والحجاب بعدما وجدت عزوف الفتيات والنساء عن القراءة وانتشار قصص إباحية وروايات هدَّامة تشغل الفتيات في الجانب الحسي والغرائزي وتذكي فيهن الولع المحرّم، وجهتهن إلى طبيعية الحب ومفهومه الطاهر وقدمت لهن تصوراً صالحاً

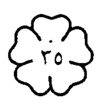


حول علاقة الرجل بالمرأة والضوابط الشرعية ودوافع الدين في ذلك ونتائج الانحلال الأخلاقي، وكانت تملك القدرة الفذة على إقناعهن بشكل علمي وموضوعي خصوصاً وهي مطلعة على ثقافة الغرب وتملك الأدلة والبراهين الدامغة على دحض فكرهم الذي يزعم التقدم والتطور، وشرحت لهن المفاهيم والمصطلحات بمعناها الصافي فأحببن على يديها فضائل الدين وأخلاق الإسلام القويمة، وساهمت هذه القصص على ترسيخ هذه الثقافة في أعماقهن، وحرصت «آمنة» على كتابة القصص بشكل ممتع ومشوِّق يشد الفتاة عاطفياً وبنسق أنيق يتماهى وطبيعة الأنثى المرهفة.

نجحت «آمنة» نجاح منقطع النظير وكان الناشر ينشط في طبع قصصها ويستحثها على كتابة اسمها الحقيقي لكنها آثرت الرمز خشية أن يداخلها الرياء والعجب.

كان ابن أخيها الشاب المراهق يأخذ المخطوطات إلى الناشر في أطراف القرية، وعندما تفحَّص فصول القصة وجد نقصاً في الفصل السابع، قال له: اذهب إلى عمتك الفاضلة وأخبرها بالأمر.

وصل الفتى إلى البيت وطرق باب حجرتها عدة مرات فلم تُجب، دفع الباب الموارب وأطل عليها وجدها تصلي في وقت غير أوقات الصلاة المعتادة وظل ينتظرها ريثما تفرغ من صلاتها، يمر الوقت بطيئاً والصبي يعاود ملاحظتها حتى انتهت



فأخبرها بالأمر، بحثت في أوراقها حتى وجدت النص المفقود وسلمته قائلة: لا تقل لأحد أنك رأيتني أصلي، فأنا لا أحب أن أفسد أعمالي وعبادتي بالجهر والعلانية أمام الناس.

هكذا كانت «آمنة» تجد لها وقت للعبادة وآخر للعمل، فلا يمر وقتها دون أن تستثمره في عمل هادف أو عبادة تضيء في أعماقها نوراً سماوياً هادئاً.

وتجلس مع أبناء أخيها تقص عليهم قصص الأنبياء وحكايات الأبطال في التاريخ ومعجزات الرسل وتحفّظهم سور القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة ثم تباشر أعمالها المنزلية من طبخ وتنظيف فأمها مريضة، طريحة الفراش تباشرها بحنان ومحبة نادرين، وزوجة أخيها تشاركها في أعمال البيت، ومضت «آمنة» تكتب المزيد من القصص والبحوث والمناظرات التي تحاجج بها آراء المفكرين الماركسيين والرأسماليين، أذهلت بعبقريتها الفريدة نساء العالم وبلغت شهرتها الأدبية الآفاق، لكن النظام الطاغي وجد في هذه الأيقونة خطراً مرعباً يهدد سلطانه ويفضح سياسته الظلامية التي تغيب وعي الشعب.

وفي ذلك اليوم المشؤوم والقرية الغافية في أحلامها الكبر تستيقظ على حدث جلل، لقد أُعتقل زعيمها في جنح الظلام وقادته عساكر النظام إلى سجن العاصمة مقيد اليدين معصوب العينين، فخرجت «آمنة» من خبائها مذعورة تطرق الأبواب لتوقظ الأهالي من سباتهم وتنادي فيهم أن أخيها زعيم القرية



قد أُعتُقل وتمضي في صرخاتها المدويّة تستثير حميتهم ليطالبوا السلطة بالإفراج عن الزعيم، وقفت «آمنة» تخطب فيهم في باحة المسجد والأهالي يتجمهرون حولها رجالاً، كهولاً، أطفالاً، تخرج مجاميع تندد بالاعتقال الظالم وتمتد الصرخة إلى باقي القرى وضواحي العاصمة ويدب الرعب في جلاوزة السلطة فيتم الإفراج عن الزعيم ليعود سالماً معافى إلى قريته يستقبله الناس بالحفاوة والابتهاج، لكن العاقل لا يأمن مكر الظالم وحيله الجهنمية، بعد أيام انتشر جند الحاكم الظالم في القرية ومنعوا من تجوال الناس وأحاطوا ببيت الزعيم وشقيقته العالمة «آمنة» وقطعوا اتصالهم بالعالم الخارجي، وضعوهما تحت الإقامة الجبرية وقُطع عن هذا البيت الماء والكهرباء، فكانت محنة قاسية جعلت الأطفال يعيشون أياماً سوداء مريرة، توفت والدة الزعيم متأثرة بالضغوط والمرض والقلق، وعندما سيطرت قوات الشرطة على مداخل القرية قطعوا التيار الكهربائي عن مناطقها كاملة لتنشلَّ حركة السير فيها وتهجع النفوس في العتمة وليفعل الخفافيش فعلتهم النكراء بعيداً عن عيون الناس، قادوا الزعيم وأخته في سيارة جيب إلى العاصمة حيث كانت الخطة معدة وجاهزة للتنفيذ.

تم تعذيبهما تعذيباً وحشياً لا يدركه عقل إنسان سوي ثم أعدما في النهاية تحت ذريعة فجة ومزرية «خيانة الوطن»!

ورحلت «آمنة» شهيدة إلى الفردوس الأعلى طاهرة نقيّة،



تركت تراثاً فكرياً عظيماً وقصصاً وروايات تتوارثها الأجيال جيلاً بعد جيل، وتتلمذت على يديها مئات الفتيات كن سفيرات للحقيقة يعرضن ظلامتها في كل بقعة من بقاع العالم وطرن كفراشات الصباح المترعة بالأمل والحب ينشرن القيم السامية والمبادئ الصالحة ويثقفن الفتيات ثقافة السماء التي تنجي الإنسان وترتقي به إلى ذروة الكمال، وأديبات نابغات تخرجن من مدرستها وانتهجن نهجها الإسلامي الذي قلب الموازين وغيّر نفوس، وأيقظ عقول، قد ظن الظالم أن تصفية الجسد نهاية للعظماء بيد أن الغياب يلهم في القلوب المحبة حضوراً مفعماً وشوقاً متضوراً، وقلمها الشامخ لم ينكسر بل خط على صفحات الأدب قصص وعبرات أسرجت في ليالي الغرباء أقمار حياة.

«وحكايتها هذه نقلاً عن أديبة نهلت من نبع عطائها المدرار الدرر والجواهر فكان لوقع كلماتها السحر والبيان».

بقلم خولة القزويني
www.khawlaalqazwini.com



وأينعت زهرتي الذابلة

«هاجر»

(عندما نقف على مشارف الكهولة وتذبل زهرة العمر وتداس تحت أقدام قاسية ينتفض داخلنا كائن مكبوت يسترجع الربيع الذي ولى).

استيقظت «هاجر» متثاقلة هذا الصباح فقد قضت ليلتها تفكر في حياتها حينما كانت تزخر بهجة وعنفوان، ربما هو الإحساس بالوحدة يجعل المرء سلبياً في تحليله للمواقف وقاسياً في حكمه على الناس، لكنها محقة فيما تفكر فزوجها «عدنان» متباعد في أعذار مفتعلة يهوى على رأسها بمطرقة أفقدتها التوازن «متزوج من صديقتها المطلقة».

لم تشأ مغادرة البيت وإثارة ضجة عاصفة تهدد أركان الأسرة وتقلق أمان الأبناء، امتصت الصدمة عبر إيحاءات ذكية بالغت في افتعالها كي تمارس حياتها بشكل طبيعي، أولادها قرّة عينها (يوسف) الأكبر و (لمياء) ثم (طارق) الأصغر، تكونوا في نسيجها وانصهروا في أنفاسها فما عادت ترى الحياة إلا



بعيونهم، لن تجعل نزوة طائشة لرجل أحمق تزلزل هذا البيت الساكن.

قال لها زوجها «عدنان» وهو يداري خجله ويتشاغل عنها بتصفح الجريدة، بعد أن سألته هادئة ومتيقنة:

- «متزوج أليس كذلك؟»

بانشداه وارتباك:

- «نعم»

تركت يأسها يتسرب عبر ابتسامة متكلفة.

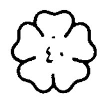
أطل بعينيه من وراء الجريدة:

- «وكيف عرفت؟»

- «منذ أن تحولت هفواتي الصغيرة إلى أخطاء جسيمة، فالمثل يقول: تكبر الأخطاء عندما تقل المحبة».

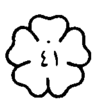
ترك الجريدة مضطرباً لا يعرف كيف يداري موقفه أو يبرر فعلته، وانتظر ردود الفعل المتوقعة من كل زوجة مخدوعة لكنها رمته بنظرة ساخطة تقطر سخرية وازدراء.

ومنذ هذا الحديث وكيانها انقلب بشكل تلقائي، بالرغم منها فلم تخضع لمنطق أو تدبير، قلبها المجروح قد تحجّر نحوه وانغمرت في الحزن والألم وكلما حاول أن يقتحم غورها الغامض تعرض في انكفاء ونفور، يتفانى في مجاذبتها عبر



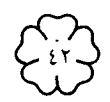
الهاتف ودعابات تنكمش مجفلة، فالأنثى المرهفة الحس، الجياشة العاطفة تنضب عندما تطمر إحساسها بوحل الجهل والحماقة.

ثلاثون شمعة من شموع قلبها المتفجر حناناً قد ذوت هباءاً، وتبدد عمرها المعطاء سُدىً، لو كان بصيراً لاستقرأ الماضي بقلب المحب، واستوعب براهين عشقها الدامغة، قدمت جزءاً كبيراً من إرثها ليؤسس مشروعه، شاطرته الدهر في السرَّاء والضرَّاء وحفرت في ذاكرة السنين شاهد صبرها وفنائها، تعرض لحادث فانكسرت ساقه وكانت له العكاز الذي يستند عليه، هادئة، معطرة بنداوة الزهرة الرقيقة، متهالكة على أبنائها بمحبة موسوسة، ورعتهم رعاية خانقة، استقالت من عملها في المؤسسة التجارية التي ورثتها عن أبيها لتحمي بيتها من رياح الزمن الغادرة، مخلصة في تكوينها ولا تعرف أن تكون إلا بهذه الشاكلة، بل كانت متميزة في مثاليتها المزعجة للآخرين، وتتساءل هل يملّ الرجل حالة التوافق الرائعة ويظنها حالة موات؟ ربما كانت تنبقصه أحاسيس صارخة وانفعالات جياشة تذكي فيه الحيوية والنشاط، فالهدوء الذي خيّم على أرجاء البيت نابع من طبعها المسالم وفتورها المهادن، وصديقتها «تهاني» مخلوقة صارخة، متدفقة، سريعة الاشتعال وسريعة الانطفاء، فهي ليست من ذلك النوع الذي تهذب على الصبر والوفاء، قد تكون نزوة، محطة، سرعان ما يزهدها الرجل، بدت



منفتحة مع صديقتها التي استوعبت الحكاية فأتقنت اللعبة، فما أسفت «هاجر» إلا على قرار زوجها الطائش الذي شفَّ عن حقيقة هشة صادمة لأمانيها فيه.

عاشت وإيّاه في عزلة نفسيّة دفعتها إلى احتواء أبنائها والانشغال بهم وبمطالبهم وهمومهم إلى حد التراخي بذاتها فنسيت نفسها في لجة الحياة الصاخبة وانقلاباتها المفاجئة متهاونة بمساحة أنوثتها، أبناؤها حلم حياتها الباقي وحبها الأوحد بعد أن طلقها «عدنان» وهجرها إلى «تهاني»، في مطعمهم تطهي ما يشتهي هذا ويرغب ذاك، تنساب لنزواتهم بمزاج رائق لا تعرف الضجر أو الملل، وفي ملبسهم تركت أنهار رصيدها تصب في خزائنهم لينهموا ما يرغبون من ثرواتها دون حساب، وسهرت ليالي عمرها الفتي تداوي المريض منهم لا يغفو إلا ورأسه في حجرها، وعيونها المحبة لا تغفل عن رعايتهم ورقابتهم الحنون، سافر «يوسف» إلى أمريكا ليدرس الهندسة وتخرّج ثم تزوج وعاش في شقة استأجرها بناء على طلب زوجته، وابنتها «لمياء» مخطوبة وعمَّا قريب ستغادرها إلى بيت زوجها، وصغيرها المراهق «طارق» ذلك الذي تعرض إلى حُمى في طفولته وكادت أن تفقده وعاشت أيام صعبة تتوسل إلى الله عز وجل وتنذر للصالحين والأولياء النذور حتى يزول عنه الخطر، «طارق» الذي سقته من معين فؤادها ودموع عينيها صرخ بها معنفاً ليلة أمس حينما عاتبته على عودته إلى البيت متأخراً.

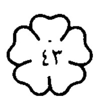


انهمرت دموعها وهي ترتشف رشفة مريرة من قهوتها هذا الصباح الكئيب وانتبهت وهي ساهمة تفكر إلى الطير الحبيس في القفص المعلّق على جدار الصالون قد خفت صوته وهدأ نشاطه، إذ بدا خاملاً متكاسلاً على غير عادته، ماذا كان يجول في خاطره الحزين حينما استسلم إلى الفناء بهذا اليأس والقنوط؟

تنهدت «هاجر» وهي تشعر بانكسارها المذلّ، ووحدتها القاسية عبرت بنظراتها على المائدة الخرساء المصفوفة بإتقان وذوق تنتظر حضورها الروتيني لتناول الفطور، من منهم فكر بي؟ لوعتها المضنية وعذابها الصامت وجراحها المكبوتة تنزفها دمعاً كل ليلة على وسادتها الباردة، إنهم يهيمون في وادٍ آخر تأخذهم دروب الحياة إلى شؤونهم الخاصة، هي من تبادر بمهاتفتهم، هي من تفكر في دعوتهم إلى لقاء، من منهم تذكر أن لها قلباً يتعطش إلى حنان؟ من منهم يدرك أن لها روحاً تتلهف إلى حب؟.

قبل أيام ذهبت لمياء لتحضير لوازم الفرح، لهفت نفسها على فستان أحمر نهرتها ابنتها بقساوة «لا يا أمي لا يليق بكِ» وتساءلت في انكفاء خافت «هل كبرت إلى هذه الدرجة؟!».

ويوسف سافر مع زوجته وأمها إلى (سويسرا) للسياحة والعلاج هل بادر بدعوتها مجاملة وعرفاناً؟



وابنهـا المراهق الذي شـاب أباه في مـزاجـه الغـرائزي بقي يلومها باستمرار على نفورها من أبيه وتحريضه على طلاقها..

ماذا بقي لها؟ ومن بقي معها؟

غرقوا في أنانيتهم ونسوها في ذلك البيت الموحش وصرير أبوابه تشعرها بالبرد وصدى صوتها المشروخ يرتد إليها مخيفاً موغلاً في اليأس.

هل تنتظر المجهول حتى يدب فيها الانهيار كما الطير المخذول امتص الحرمان رونقه، هامت في فكر سحيق مأخوذة في تجاذبات متناقضة تأخذها إلى ذروة التمرد والانتفاض على الذات، هل أسدل الزمن ستاره فما عادت تنتظر الباقي من رحلتها المجهولة؟ ماذا ينقصها الآن وهي تهدر كل ما تملك للآخر فرهنت نفسها لأسرتها الجاحدة، إنها المحطة المفصلية التي ستأخذها إلى الضفة الأخرى لن تقف عاجزة، منهارة، تنهشها الوحدة ويمزقها الإهمال والنكران، ثمة خطوة تحتاج إلى شجاعة وإصرار، حينما ينطلق هذا الطير من سجن الوحدة والحرمان ويبحث في الفضاء الفسيح عن مرافئ وأغصان حتماً ستعود له الحيوية والنشاط، همت بالقفص لتفتح بابه وتركت الطير يهرب إلى الحرية..

تذكرت صديقاتها، عملها، ثروتها، لِما غفلت عنها، منهمكة في تجاهل ذاتها واحتراق كينونتها لتنشئة كيانات أنانية، «الحمد

لله أديت رسالتي في الحياة ولم أقصّر في شأن من شؤون البيت هكذا أظن، ولا أزعم أني بلغت المثالية في العطاء».

اتصلت بصديقتها الخاصة «ألطاف» وعرضت عليها فكرة السفر إلى (لندن) حيث شقة والدها المرحوم والتي تركت مهجورة سنوات.

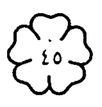
«أحتاج إلى الراحة والاستجمام».

رحبت الأخرى، فهي أرملة متقاعدة منذ سنوات وحجزت لهما مقعدان في الطائرة واعتذرت لأبنائها عن يوم الجمعة (يوم الملتقى العائلي).

سألتها «ألطاف» ماذا طرأ عليكِ؟

«أحتاج أن أستعيد ذاتي الضائعة، منحت كل ما أملك لزوجي فأنكر، وأفنيت عمري في أبنائي فجفوا، ما عدت أنتظر من أحدهم شيئاً».

وأعادت ترميم البيت ومكثت فيه شهوراً طويلة تنفض عن جسدها المنهوك أعباء السنين وتجلي عن قلبها غبار الهمّ والكدر، تنهال عليها مكالمات أبناؤها يومياً وهي تتجاهل أو ترد في برود وكانت تفهم مضامين أحاديثهم «القلق من نفاذ رصيدها» فقد استولى عليهم رعباً فاضحاً لنواياهم جعلها تذكر دائماً لهم أن أموالها قد نفذت في مشاريع خاسرة، ابنتها تتودد إليها وتطالبها بشراء ثياب من دور الأزياء الأوروبية لكنها تعتذر عن تلبية طلبها.



وعادت لتعمل مع أخيها في المؤسسة التجارية وتستثمر أموالها الباقية في مشاريع تجارية هادفة.

بينما كانت جالسة مع أخيها في مكتبه يتباحثان في مشروع جديد وأسرها أن هناك طرف ثالث سيشاركهما في (رأس مال كبير) وهي مصرَّة أن ترفض شراكة أحد خشية التورط في الخسارة، لكن أخيها يجادلها في تخابث يأخذ مأخذ الدعابة ويضيق صدرها:

«لا أدري لِما تصرَّ على الشريك الثالث ونحن قادران على تأسيس المشروع لوحدنا».

- «لو أنكِ تعرفين من هو الشريك الثالث لَمَا رفضتِ كل هذا الرفض!».

اندهشت صامتة تفكر لكن الفضول دفعها لتسأل:

«من هو؟».

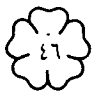
«اغمضي عينيكِ»

وفجأة..

فُتحَ الباب ودخل «صادق».

انبهرت وعيناها مشدودتان إلى الرجل تهتف في انشداه جعلت ذاكرة السنين تعود بها إلى الوراء:

«صادق؟!».



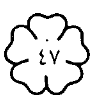
تجمّدت الدماء في عروقه حينما وقع بصره عليها، أهكذا تدور بنا الأيام لنلتقي ثانية بعد فراق دام سنين طويلة كان «صادق» خطيبها الأول أحبته ملء فؤادها لكنهما تفارقا بسبب مكيدة مدبرة من إحدى قريباته كانت لها مطمع فيه، حاول «صادق» في حينها أن يشرح لها الموقف وأنه بريء من هذا الظن، لكن غرورها وكبرياؤها دفعا أشرعة قلبها نحو شاطئ آخر..

قال أخوها:

«جاء صادق ليشاركك الحياة من جديد هل توافقين؟».

أطرقت في خجل- وفرت من طرفها دمعة فإذا بعروقها الجامدة تنتفض من جليد الوحدة وقلبها المحزون ينبض دفقاً موارأ بالحب والأمل يسقي زهرة عمرها الذابلة، هل كان «صادق» قدرها المرتقب وفرحتها المدخرة في == الغيب، المكافأة المستحقة لكل إنسان معطاء صبر وابتلع الغصص شاكراً لله، عادت بكراً يتضرج وجهها حُمرة وكل خلجاتها تجيب «نعم».

بقلم خولة القزويني
www.khawlaalqazwini.com



«تـوبة حسنـاء»

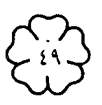
قصة «فريال»

قال الله سبحانه وتعالى:

﴿إن الله لا يُغيّر ما بقومٍ حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم﴾.

من قاع الحرمان، ومن بين أنقاض الضياع والأسرة المقطعة الأوصال تنبت زنبقة بيضاء كبسمة الفجر حينما تشقشق عن ليل دامس تبصر حولها بيتاً بلا قيم وأرضاً بلا جذور وبانكسار تبحث عن حضن أم غلبتها أنانية متهتكة فتركت باب البيت مشرعاً نهباً لرياح الفساد تخلخل بنيانه وتصدع جدرانه ولا شيء غير الإهمال والتشرد.

كبرت «فريال» بلا حنان وبلا قيم تأكل وتشرب كأي كائن مادي تنمو حواسه الحيوانية وتتفتق في أعماقه رغبة جامحة في التهام الملذات، ليس ثمة ضوابط عقلية أو روادع نفسية تكبح هذه النوازع وتلجم صهيل الشهوات، الروح الطيبة ترفل في سماء حياتها «فاطمة» الخادمة الهندية تعبق بذلك الوفاء



المتأصل في فطرتها نحو ذلك البيت الذي حوّلته الأم إلى وكر عربدة صديقات همشتهن الحياة وألقتهن على الأرصفة العتيقة، بقايا استحالت مع مرارة الزمن إلى كائنات ملغومة بالحقد تنسف كل القيود التي تحد جموحهن الأحمق.

و «أمها» ترملت شابة فانبسطت لجمالها أجنحة الطمع تحتويها بجنون وتأخذها إلى كل حلم يدغدغ ذاكرتها وهي رهينة رجل طيب فقير طوق هذا الجمال المتمرد بذراعين رخوتين.

الخادمة «فاطمة» تلازم فريال كظلها مذ أن كانت غضة ملفوفة في قماطها الأبيض، هوت بها الأم الجحود في قاع الحرمان «خذيها واسقيها الحليب» قد جففت الحليب من ثدييها خشية أن يَتشوّه معالم الجمال فيه لتنطلق في جولاتها المتهورة وهي نفساء هادرة الرغبات «الخادمة» تحتضن الرضيعة التي برّح بها الجوع والحرمان في نوبات بكاء متشنجة تكابد حيرتها وإهمال الأم المفرط.

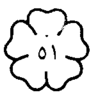
في ربيعها السادس عشر تفجرت كنوزها الأنثوية لترسم في تكوينها البديع جمالاً متفرداً في تعابيره وخوف فاطمة يكبر والرعب يتحول إلى مواجهة عاصفة بينها وبين الأم فكان قرار التسفير الجائر أسقط «فريال» في قعر الحزن الممض ففاطمة كانت الأمل الذي يتبرعم في هذا البيت القاحل اجتثت الأم جذوره من الأعماق.

شاهدنها النسوة تعبر عيونهن المنبهرة في حسنها الوضّاء، فانحبست أنفاسهن في صدور ضاق بها الحسد «أهذه إنسيّة أم حوريّة؟» اشتعلت الغيرة في قلب الأم واستبدت بها أنانيتها البغيضة فحجبتها عن الظهور أمام الضيوف.

تعلمت «فريال» في ظروف وعرة ونتائجها صادمة لتوقعاتها، فذهنها متعكّر بالهموم والقلق وعيناها بحيرتا دمع لا تفتأ أن تفيض كلما داهمها رعب الأم تضربها في انفجاراتها العصبية المشتتة الدوافع، أصرّت على النجاح وشقت بين الصخور نهراً صغيراً فيه الأمل.

التحقت بمعهد المعلمات بنسبة ضئيلة وانطلقت في حياة جديدة مصقولة بنضج فاتن وبينما هي تخرج من باب المعهد تماشي صديقتها «عبير» لمحت ذلك الشاب المريب ظل يترقب إطلالتها فعرفت أنه شقيق «عبير» وصارحتها برغبة أخيها في الزواج منها، وفكرت ملياً في حياتها المضطربة فوجدت أن زواجها هو المخرج الوحيد الذي سينتشلها من مستنقع الهاوية.

تزوجت «عدنان» رجلاً عابثاً.. متكاسلاً، نزوي الطبع، منغمر في الملذات البهيمية وكانت نزوته الدنيئة مع الخادمة طعنة جارحة في صميم كبريائها بكت وكبدها يتلظى من وقد الألم «ما أسوء حظي ما أتعسني من امرأة» تفانت من أجل أن يستقر بيتها وغضت الطرف عن عيوبه وطّنت نفسها على طبعه



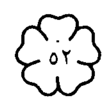
وتكيفت مع تقلباته المزاجية كي تستقيم حياتها وتركن إلى شاطىء الأمن والسلامة.

حملت بإبنها «طلال» فرحة عمرها قد وطّن قلبها على الغفران لأبيه واحتساب الصبر استثماراً لاستقرار أبدي، أخلصت بعطاء نادر وجهاد في ورع، احتوت بيتها بدفء قلبها ورهافة روحها.

ذات مساء عادت من المستشفى إلى بيتها تحمل ابنها المريض مرهقة متهالكة تجرّ ساقين مكدودتين وفوجئت بمشهد عذابها الذي أباح دم كرامتها في بيت الزوجية صرخت بدوي هيستيري وانهالت عليهما ضرباً «حقيرة، نذل، جبان...» ما الذي ينقصك؟ جنونها الهادر متواطىء مع بغتة المشهد صفعها ثم شدها من ذراعها نحو الباب «اخرجي أنتِ طالق، طالق، طالق،».

صراخها الأموي ينخر في عباب الضجة «ابني طلال». ويدفعها خارج الدار «اخرجي اخرجي، حشرة، نكرة»، فتاهت بين دروب الضياع بلا مأوى ولا رجل مشتتة العقل وفكّرت أن تعود لأمها حينما عرفت أنها قد تزوجت وحدست أن الزواج قد أضفى عليها شيئاً من الرحمة والغفران.. طرقت «فريال» الباب وباغتها الزوج الذي شهق من هول جمالها وخلفه الأم المرتبكة «ما الذي أتى بكِ في هذه الليلة؟».

وتسمّر الزوج في مكانه مشدوهاً «ادخلي يا ابنتي».



أدخلتها الأم على مضض وحضورها المبهر يستثير غيرتها على زوجها الذي ما استقرت رغائبه في استمالتها.

بحثت عن عمل فإذا بالعروض تنهال عليها تباعاً، رؤوس كبيرة عبّدت لها الطريق وذللت لها منافذ العبور إلى القمة، فجمالها كان تأشيرة مرور نحو آفاق كثيرة. المدير العام لهذه الشركة استأثرها لنفسه «سكرتيرة خاصة» حسدتها النساء فهي ما خطرت في مكان حتى كانت لكل رجل مطمع واستباحها سوق النخاسة الذي حوّل المرأة إلى سلعة رخيصة تُسعّر وفقاً لمقاييسها الجسدية.

استوعبت اللعبة وقررت أن تعيش في سياق هذا العصر الحسي النزعة وهوت بنفسها في هذا البحر الزاخر بالنعيم والمسرات فقد وهبها الله ثروة تفوق ثروات العالم الثالث كما قال أحد المنتفعين المبتذلين. ثم شرعت تستظهر مخالبها الأنثوية ومقالبها المتفننة لاستدراج رجال من الوزن الثقيل وهجرت أمها بعد أن استأجر لها مديرها شقة فخمة في حي راق.

صادف أن التقاها شاب من بلد عربي يعمل في السلك الدبلوماسي نبض قلبها بالحب نحوه واستشعرت رغبتها في الاستقرار ثانية. هفهفات طيبة من روح فاطمة مربيتها تهدهد روحها التواقة إلى حضن أسرة وعطف زوج اقترنت به وكان الثمن طردها من الشقة وإقالتها من العمل وما هي إلاّ أيام

ظنت نفسها أنها بلغت نعيم الجنة حتى كشفت خبيئته، متورط في مشاريع مشبوهة بتغطية أحد الأثرياء الذي دعاه ذات ليلة على وليمة عبّرت عن خسة أصله ودناءة خُلقه! وهالها خبر حملها من هذا الزوج المريض الذي أدمن على كل المحرمات ولوث فطرتها الميالة للسكون والتوبة.

بكت بأسى وبعويل يصدع القلوب «متى أستقر يا ربّاه؟».

عادت تبحث عن عمل جديد والذئاب تنهشها والعيون تغرس سهامها المتوحشة في لحمها، عرضوا عليها التمثيل وكل صنوف الغواية التي تحوّل كرامتها إلى أشلاء.

إنها تراوح بين الرفض والخضوع هي في الظاهر أمها المتمردة على القيم وفي باطنها «فاطمة» المؤمنة المتباكية في الصلاة ترتّل التعاويذ والأذكار حينما تأخذها إلى الفراش مازالت حاضرة بسمرتها الداكنة وخمارها الأسود. افترستها الأحزان فوهن جسدها الجائع الذي لفظ الجنين واستحوذتها كآبة قاتمة امتصت نضارتها وجففت رواءها- عرضت نفسها على طبيب نفسي قد لفّها بشرنقة الحيرة ليجتذبها إليه محتاجة فبدت مستسلمة لفنونه المغلفة بالسحر وظل يلاحقها بجنون ويتودد إليها تحت ذرائع غامضة فتركته متخبطاً في أهوائه. عادت لتستأجر ملحقاً صغيراً في أحد المنازل اتخذته مأوى لوحدتها ودفئاً لبرد وحشتها... هذه الليلة داهمتها حُمى

أبلت عظامها وأدخلتها في غيبوبة حلم، نامت وعيناها طائراً حيرة تبحثان عن شاطىء فاطمة فهتفت بلوعة، متراخية بين اليقظة والغفوة «أين أنتِ يا فاطمة»..

ارتعدت والعرق يتصبب من بدنها، تلهث، مذعورة «فاطمة، فاطمة» فاطمة تخاتلها بثوب أبيض تسقيها شربة من حليب مصفّى «اشربي يا فريال».

إنها تنتفض، تبكي ساهمة يجتذبها نداء خفي ونور يسطع من بعيد، وثَبَت كمن لدغتها أفعى، ثم وقفت أمام المرآة متحفّزة تعنف نفسها:

«ما قيمتي وقد طواني جمالي في قبر من شهوات الرجال، ما أتعسني من امرأة، من أحبني؟ من احترمني؟ من أخذني دون ثمن؟!.

ثم هوت على الأرض باكية، نادبة، منتحبة «يا رب تعرف أنني أمقت تلك الحياة الوضيعة، غداً سأخسر كل شيء وأتحوّل إلى نكرة مرمية على رصيف الحياة».

وقررت «فريال» أن تعبر نحو الرصيف الآخر حيث الأمن والطمأنينة فكرت أن تزور إمام المسجد في الحي الذي تقطنه، وجلست بين يديه تقر ذنوبها، ووجعها الدامي، بارك خطوتها وأسبغ عليها شيئاً من فيوضات الله عبر آياته التي تستحث على التوبة مهما أسرف العبد في الذنوب والآثام فحدثها عن العفة

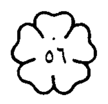
والحجاب وارتدائه يعتبر نقطة تحوّل تأخذها إلى حياة الطهر والسعادة.

اغتسلت «فريال» غُسل التوبة وصلّت ركعتين أحست بارتياح لم تشعر به من قبل، نور يتغلغل إلى عتمة قلبها فيضيء كل جنباتها إنها في ربيعها الثلاثين وقد اختزنت تجارب مهجنة بالعذاب هدتها إلى حقيقة الحياة.

وامرأة في ذروة الحسن والطلة البَهيّة المرشحة لأن تتبوء عرش الجمال إن استجابت تخرج من جوف الرذيلة إلى شق النور، وتقرر بصلابة وشموخ فاطمة أن ترتدي الحجاب متشحة بعباءة الطهر- منطلقة في رحاب الله عابدة، متبتلة لا يُرى منها إلاّ قرص وجهها الملائكي المجلل بالسكون المهيب.

ولّى عنها الاضطراب دون رجعة، تخلصت من الأقراص المنومة والمهدئات فإذا بهذا الانقلاب الهائل في حياتها يلقيها في مرافىء السكون والهداية، بحث لها إمام المسجد عن مهنة تسترزق منها وتقيها ذلّ الحاجة، عملت سكرتيرة في مدرسة بنات وتجلى بعد فترة لطف الله سبحانه ورحمته إذ خطبها شاب متدين قد توفت عنه زوجته، اقترنت به وذاقت معه رحيق الحب وشهد الحنان، تفانى في حبها وأغدق عليها نعماً ومسرات لم ترها في حياتها قط.

بعد سنتين من زواجها داهمها المرض الخبيث وعاشت تصارع الألم المرير في صبر وجلد وفي حضرة الحب المقدس



يغمرها الزوج برعاية جمة تهمس في لحظاتها الأخيرة مودعة حياتها بين يديه:

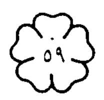
«الحمد لله أنني مفارقة الدنيا وأنا في نعمة الإيمان مطمئنة إلى رحمة الله وبلائه في مرض عضال كفّر عن ذنوبي ومحى سيئاتي وأشكرك لأنك أذقتني ولأول مرة في حياتي طعم الحنان، أحمد الله كثيراً أن كانت توبتي متناغمة مع سياق القدر الذي كان يخبىء حتفي الأبدي بهذا المرض، الحمد لله أن كافأني الله عز وجل في خاتمة حياتي بأحسن مكافأة».

الوسادة الخالية

«غزال»

رغم مرارة الوحدة، ووحشة الليل، ولوعة الحرمان نحتت قدرها بصبر وعزم فكانت أماً متألقة على منصة الحياة تتبوأ عرش الكرامة (يزينها) أكليل الحب والياسمين.

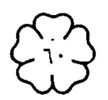
كانت معشوقة زوجها، منعمة بدلاله، معززة بكرمه، شقت وإيّاه درب الكفاح، وبَنَت معه صرح السعادة لبنة لبنة وأنجبت له أربعة أبناء ولدان وبنتان، كان لفرط حبه سَيّدها ملكة على عرش قلبه وأحاطها بسياج من ذهب خاف أن تقرضها حرارة الشمس فتجف نضارتها، توحد بها في مملكته «أنتِ هنا في داري، معزّزة مكرّمة وأنا خادمك المطيع، لم تخلق تلك اليدين البضتين لشقاء الحياة، فهي رقة ملائكيّة، وعهدٌ عليَّ أن لا أدنسها بعبء أو عناء، فغزالتي التي خُلقت أميرة ويعزّ عليّ أن ترهقها هموم الحياة، تدثّري بدفء حبي لتحتمي من برد الشتاء، من عصف الرياح، في خاطري أحملك على ذراعي وأطير بكِ فوق السحاب».



أغمضت «غزال» عينيها الغارقتين بالدموع وتأوهت بالتياع ثم رنت بطرفها الذابل إلى وسادته الخالية بحنين جارف مزّق أحشاءها، مازالت هناك آثاره تنبض في كل الأشياء حولها، الشراشف، خزانة الثياب، الأدراج، علبة سجائره وقنينة الدواء على منضدة قرب السرير كان سعاله ممضاً في الأيام الأخيرة، ذكريات تصدح بمرارة في أعماقها وتقض مضجعها بحرقة، غادر الحياة قبل أيام بحادث مروع وتركها فريسة لعذاب الوحدة والحرمان.

ترعبها الحياة بكل تفاصيلها الخانقة، قبل يومين خرجت من المصحة النفسيّة أثر صدمة غيابه وانتبهت إلى الحياة حولها تطالبها (بإلحاح) أن تثب بكل شجاعة لتقود المركب وحيدة. أربعة أبناء في مراحل عمرية خطرة وأم عاجزة قد كبلها الدلال بقيد من حرير وحوّلها إلى مخلوقة طريّة لا يمكنها خوض الصعاب بجدارة، ذكريات الأمس تفترسها وتطفىء كل مساحات الأمل داخلها، فما عاد هناك شيء في الانتظار، وهذا الباب الموصد على الخواء أعلن الحداد الأبدي، تتذكر خطوه الحنون يمضي في شرايينها المتعطشة بتدفق لا يرحم، صرير الباب، وقع أقدامه، أنفاسه، تقلبت على جمر اللوعة، يفتك بصحتها الغياب.

يطالها خيال من النور يفترش النافذة ويسرح في فضاء الغرفة، شدت نفساً عميقاً ثم لملمت أطرافها الواهنة واقتربت



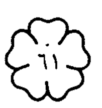
من النافذة لتطل على الشارع الساكن الذي دبت فيه الحياة من جديد ويجنح بها خيال الفكر نحو السماء الرحبة فهناك تُكتب أقدارنا وإليها تمضي أرواح أحبابنا في رحيل أبدي.

وتدور أيامها في مساءات موغلة في الكآبة وصباحات فارغة وحياة صامتة كقبور الموتى، يأسرها الفراق في حالة من الشرود الحزين، شدت بصرها إلى السماء داعية «يا رب أنت رجائي في وحشة الطريق، ألهمني الصبر، لا قوة لي ولا معين غيرك، أنت معتمدي في هذه الحياة، هبني العزم والإرادة لأكمل المسير، يا رب هل لليل الأحزان من صبحٍ ونور؟»

انتفضت باكية ودموعها تجلي كرب قلبها وتلهمها رباطة جأش، فالحب الذي غرفت من معينه طوال سنين زواجها لابد من استثماره الآن في مشوارها الصعب، زرع فيها زوجها قيم البقاء لتستمد منها طاقة روحية مترعة بالعطاء.

لقد وهبها «عماد» حب الحياة لتزرع وتثمر لا أن تتكفىء في زاوية الذكرى تتعذب حتى الفناء، حدثت نفسها في يقظة مباغتة «إنه داخلي، وحولي، وفي عروقي ونبضي، إنه موزع في أبنائه الأربعة، سأرد له الجميل بوفاء وعرفان، لطالما ذقت على يديه كؤوس الشهد والنعيم فلِمَ أبارح هذا المقام وأنزل إلى درك الجحيم».

وكان أول قرارها أن تجتمع بأولادها، وحدث أن جمعتهم مساءً على مائدة العشاء، حاولت أن تبدو حازمة جادة لكنها



اختنقت بعبرتها فور أن وقعت عينيها على مقعده الشاغر، بينما عيون أولادها معلّقة على شفتيها بانتظار أي جديد يمكن أن يفك أغلال الحزن المخيّم على البيت..

همّت لتجتر كلماتها:

«أحبابي أعرف أن الموقف صعب!»

انحنت رؤوسهم.

شدّت على كلماتها

«ارفعوا رؤوسكم، سنكون يداً واحدة وقلباً واحداً، وقراراً واحداً، صدقوني أباكم لم يمت إنه حيّ فيكم، روحه حاضرة معنا.. لقد زرع فينا الحب لنعيش ونستمر ونكافح بقوة، ساعدوني لنجتاز هذه المحنة وننجح في هذا الاختبار حتى نفوز برضا الله سبحانه فهو من يمنحنا الصبر والسلوان. سأتفانى يا أعزائي في رعايتكم طالما بذلتم شيء من جهودكم».

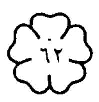
أطرقت صامتة والدمعة تفر من مآقيها، ثم تداركت:

«لا أدري ما أقول، أعلم أن الموقف شديد الوطأة عليكم، لكن تذكروا أننا لسنا أول ولا آخر أسرة تفقد معيلها».

سألتها «سوسن» طفلتها الصغرى

«أين سافر أبي؟»

شردت «غزال» بعيداً وذاكرتها تسافر هناك حيث المثوى الأخير



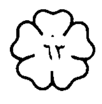
«إنه في الجنة يا ابنتي وسنلحق به في يوم ما»

حدق الأبناء ببعضهم البعض في ذهول، وكان ابنها البكر مراهقاً في السابعة عشرة من عمره، شديد الانطواء على نفسه، متأثراً بغياب والده، نافراً من المذاكرة، كثير الصمت والسرحان، تحتاج إلى بذل الجهد والصبر لمؤالفته حتى يستعيد عافيته النفسية.

لابد من إجراء تغييرات داخل البيت لتمويه مشاعرهم والتحايل عليها كي تستفرغها من شحنات الحزن، غرفة المعيشة تسحقهم بالذكرى الموجعة فعيونهم تتابع آثاره، الكنبات، الوسائد تنطق بحضوره الحنون، كل جزء مسه أو لمسه ترك بصمة تحفر في القلب، فروحه تختالهم وتسكنهم فيتعذر عليهم النسيان.

غربلت «غزال» البيت وأحدثت فيه انقلاب جذري، فنقلت مجلسهم اليومي إلى الطابق الأول واستبدلت الكنبات القديمة بأخرى من الخيزران، وجهزت لهم ركناً للألعاب، حاولت أن تضفي شيئاً من البهجة إلى حياتهم الساكنة، كانت تترك النوافذ مفتوحة طوال النهار ليغمر نور الشمس الجدران والبلاط فتظن النفس المكتئبة أن هناك شيء جميل في انتظارها هذا الصباح، ثمة تفاعل نفسي بين الإنسان والمكان وحينما تخلق مكاناً مشعّاً بالنور يتسرب الأمل إلى القلب فينعشه.

وكان لمأكلهم نصيب، فقد اشترت طاولة طعام ونصبتها في

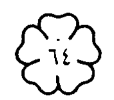


حديقة الدار ليتناولوا فطورهم وعشاءهم ولغذائهم قد افترشوا غرفة المعيشة لإثارة بعض الضجيج كي يخرج النفس من الموات، إنه استلاب هادىء لحالة التفكير القاهر، والانشغال بالمستجدات، واستقرأت في عيونهم بريق الأمل من جديد فقد مكنتهم من ذلك التكيف الانسيابي.

كل شيء خضع إلى الانقلاب إلا غرفتها الخاصة لأنها تتعايش «عماد» بروحانية تخضع لطقوس استحدثتها أيام غيابه.

وفكرت أن تعود لعملها من جديد، وباشرت بعد فترة العدة إلى متابعة الإجراءات الوظيفية حتى استقرت في نشاطها الإداري التابع لمدرسة بنات.

تعرضت لمواقف ضاغطة، تطلب منها أن تقف موقف رجل خصوصاً وأن أخوتها سلبيين متهالكين على أنفسهم بأنانية مريضة، فكانت تأنف الاستعانة بهم في تصريف شؤونها، وكان لابد أن تهيئ ابنها البكر (مصطفى) لهذا الدور فبثت فيه روح الرجولة ووضعته موضع اقتدار ومهابة، فألبسته هذا الثوب باكراً، وقلّدته مهام الرجولة قائلة له: «أنت عمادي ورجلي، أعتمد عليك في إدارة شؤون البيت وفي رعاية أخوتك» فأبدى هذا الصبي تجاوباً كبيراً وتجدد في شخصيته بشكل أكثر اتزاناً متمرساً بهوية أبوية، أشفق على أمه الضعيفة وهي تختلق أسباب القوة كي تدفع بالمركب إلى الأمام وكان هذا الإحساس

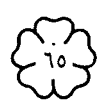


الوليد في ذات الصبي منطلقاً نحو تكامله كرجل مسؤول، فقد كان رقيباً واعياً لأختيه وعيناً شاخصة نحو المستقبل، قد صقّلته المحنة برجولة وعنفوان نادرين.

وتقف «غزال» في كل ليلة في تهجدها داعية الله عز وجل تستمد منه القوة والعون كي يحفظ أولادها ويسدد خطوها فهو ملاذها في وحدتها.

ومع تقدم السنين وتفاقم الأعباء تفيض احتياجات الأبناء، ضاقت بها المادة فمعاش المرحوم وراتبها غير كافيين لسد هذه النقائص الطارئة، باعت كل ما تملك من مجوهرات وأشياء ثمينة، اللهم إلا الخاتم الذي نقش عليه اسمه وحبها الأبدي «عماد» ولم تفكر أن تخضع لضغوط الحاجة أو تشرخ عزة نفسها أو حتى تلجأ لمخلوق يخدش كبرياءها.

أطلقت العنان لطاقتها المخبوءة من المكامن، وتذكرت أنها طاهية جيدة، وفنانة بارعة في خياطة المفارش وتطريزها وهي أعمال يمكن أن تمارسها داخل البيت وقريبة من أبناءها، ومن خلال علاقاتها الاجتماعية أطلقت الفكرة وباشرت المشروع بشكل مبسط وفق إمكانياتها المحدودة، فاشتهرت بأطايب طبخها، عرضت عليها إحدى السيدات المتقاعدات تأسيس مشغل خياطة واستعانت بقدرتها الإشرافية والفنية وكان هذا حافزاً لنمو نشاطها، فاستطاعت أن تلبي احتياجات الأبناء وتتفادى هذه المنخنقات العابرة.



وتمضي السنين وهي تكافح بصبر وشجاعة فدخل أبناءها الجامعات بتفوق يشهده الجميع، لم تقف يوماً موقف المتهاون أو المتخاذل، في داخلها إيمان بالله سبحانه وطاقة حب كبيرة شحذت فيها كل أسلحة التحدي، نسيت أنوثتها وهي تنحت في الصخر قدرها، وهذه المرآة التي طالما كانت تؤانسها باغتتها اليوم بوجه شاخ ونضب، ابتسمت بمرارة حينما تذكرت بريق عينيها الموسومتين بوسم الحب قد خبا وانطفأ حينما أدبرت عنها أفراح الحياة.. ليس في عينيها سوى ذلك الحزن الغائر وجفنان مسترخيان أضناهما تعب السنين.

لكنها ستتجمل هذا اليوم وبعد فصول الشتاء المريرة، أخذتها ابنتها الكبرى «سماح» إلى «الصالون» سرحت شعرها وهذبته بشكل رزين.

في انتظارها مفاجأة، حفلة رائعة في البيت، دعوا الأهل والأقرباء، زين أبناءها البيت بباقات الزهور، وكعكة فخمة كتب عليها «إلى أمي المثالية»

تحدث ابنها في الحفل «الدكتور مصطفى!»

«اليوم هو عيد الأم..

وأمي أعظم أم

كنت أسمع في صمت الليالي أنينها وحسيس أشجانها وأظنها قد بليت وتحطمت، لكنها تشرق علينا كل صباح ببسمتها



العذبة ووجهها المنعش فتبعث فينا الأمل والتفاؤل.. فأي أمٍ اختزلت فصول عذابها لتصيغ منها طاقة كفاح».

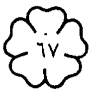
صفّق الحضور بحرارة وانفعال بان في عيونهم الدامعة، ثم قدم لها الأبناء هدية ثمينة تمثال يجسد رأسها الجميل قد نحته ابنها «فريد» الذي درس الفنون الجميلة وبرع فيها.

لم تتمالك أعصابها بكت بحرارة ثم احتضنتهم وهي تعبّر بصوتها المرتعش:

«أنتم أثمن من كل هدايا الدنيا يا أبنائي الأعزاء، نجاحكم في الحياة هو حصاد حبي ووفائي لأبيكم المرحوم».

وعندما جن الليل آوت إلى فراشها وعيناها المسترخيتان تهمسان إلى الوسادة الخالية متوحدة بخياله وبالتصاق روحي ذائب «الحمد لله أن أثمر زرعك يا عماد».

بقلم خولة القزويني
www.khawlaalqazwini.com



صاحبة المليون فكرة

قصة «نعيمة»

(تزوجته صغيرة هي أقرب إلى الطفولة منها للشباب، لا تعرف الألف من الياء، بسيطة، طيبة، ينضح من محيَّاها البكر ألقاً كالفجر وغموضاً كالسحر، تفسر بأفكار تتكاثر بانسيابية لا تعرف أنها ستكون يوماً مشروع إبداع).

غضة في الرابعة عشرة، تتلفت في خجل، ملتفعة بطرحة بيضاء، تتعثر بخطاها مبهورة الأنفاس لا تدرك من عالمها الجديد إلا إحساسها بنشوة بريئة مصدرها أهازيج الفرح تطرب مخيلة صبية كانت متقوقعة في حضن هادىء، تخطر أمام الحشد (كسندريلا) يتشوق إليها أمير الأحلام، دخلت حجرتها فور أن انفض الحفل لتنطلق الأيام في دورتها الرتيبة.

بعد أشهر قليلة...

انكشف الوجه البريء عن طبيعة صلبة، وشخصية منظمة، زوجها موظف في شركة تجارية يقطع منذ الصباح الباكر درباً

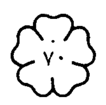


معتماً غارقاً في النوم يتشقشق عن شمس تنفض نعاسها لتبتهج بيوم جديد.

كانت تقضي نهارها منهمكة في أعمال البيت وتقف لساعات صامتة ينهشها الفراغ والوحدة، الجارات يتفقدنها بفضول ودهشة لكن التكتم والحذر جداراً يردع تطفلهن وحشريتهن.

في ومضة مباغتة انتبهت إلى المنضدة الخشبية المنصوبة وسط الدار عارية من علامات جمالية تحتاج إلى مفرش مطرز، السوق يبعد عن سكنها بمسافة طويلة والفكرة تلح عليها بجنون، تذكرت قطعة قماش كانت ضمن هدايا زفافها قد احتفظت بها في الخزانة وبخفة مدفوعة بقرار ثابت استخرجتها وتركت المقص يزحف عليها ويشكلها في قضماته الشرهة باستدارة عبرّت عن مزاج صبية منتعشة بلعبة مسلية، ولأول مرة أدركت أن لأصابعها رغبة في إذكاء هذه المهارة والانتفاض على السكون إذ يختبىء تحت جلدها أطياف من قوس قزح، أتقنت صنع المفرش مع إضافة الدانتيل وحبات الخرز كانت تضعها في صندوق مهمل بعد أن انفرط عقدها قبل أيام، انقدحت في ذاكرتها شرارة أضاءت دماغها المتخم بأفكار مشوشة بالفراغ يغذي فيها توقاً للتأمل ومزيداً من تكاثر هذه الأفكار.

ذهبت مع زوجها الطيب إلى السوق واشترت كل لوازم الخياطة وبعض من الأقمشة فهي مدفوعة بمحاولات بدائية

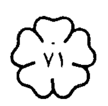


وستتمرن لوحدها، شعرت بكثير من المتعة والإنجاز فكل ركن في بيتها موسوم بوسم ذوقها المرهف.

حملت وثقل عليها هذا العبء واحتاجت أن تنظم وقتها بشكل يسمح لها أن توفق بين أسرتها وهوايتها وكان يعز عليها أميَّتها وجهلها بالقراءة والكتابة فزوجها يعود إلى البيت محملاً بالصحف والمجلات ليقرأها مساءاً ويكتب تعليقاً أو نقداً يبعثه إلى الصحف فهو ناشط في القضايا الاجتماعية وهي شغوفة بالعلم وتحب أن تستنير في كل المعارف لتغوص في مجاهيل الأمور وتحاور زوجها بكفاءة واقتدار، استغاثت به مراراً كي يعلمها الحروف المبسطة بيد أنه مشغول ويسوف هذا الأمل ويحنث بوعده ويبرر أنها الآن حامل وظروفها الصحية تعيق استيعابها لكنها مصرَّة رغم مشاغل البيت ووحدتها المملة ورتابة الزمن الذي يشلّ حيوية روحها المهيبة.

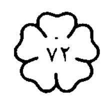
بعد ولادة طفلها البكر قررت التسجيل في مركز محو الأميّة وأقنعت زوجها بقدرتها على التوفيق بين الدراسة والبيت وانطلقت كالصاروخ في تفوقها الدراسي لتميزها بذكاء حاد وعبقرية فطرية فكيف تربي أطفالها وهي جاهلة، كيف يمكن أن تعلمهم حرفاً وهي عاجزة أن تفك الخط.

تستيقظ باكراً تطهي الطعام على عجالة وترضع طفلها وهي في انتظار أمها كي تجالس الصغير وقت غيابها. وسارت على هذا المنوال تصعد سلم التعليم درجة درجة مع ولاداتها



المتلاحقة حتى أنجبت الطفل الخامس وتركت المدرسة في نهاية المرحلة المتوسطة لتتفرغ إلى شؤون أسرتها فقد زاد عدد الأبناء وتضاعفت احتياجاتهم واتجهت نحو موهبتها في الخياطة إذ فكرت في تطويرها واقتصرت ثقافتها البسيطة على مطالعة الكتب والقصص التي يشتريها لها زوجها بين فترة وأخرى، رغم هذه الأعباء كان زوجها يعود إلى بيته فيتفاجىء بها عروساً متأنقة، منشرحة الصدر، طلقة المحيّا، تخفي معاناتها اليومية مع الأبناء وتطمئنه أن أمورهم طيبة ومستقرة فلم يسمع منها شكوى وتذمر بل ازداد إيماناً بها وبشخصيتها الواعية إذ أتقنت أعمالها وأنشطتها بقوة فولاذية استثنائية ولم تكتفي بذلك فحسب بل تقرأ الصحف وتناقشه بذكاء وفطنة واستطاعت أن تغرس في أولادها أروع القيم وأنبل الفضائل وزينت في نفوسهم حب العلم واحترام المعلم، فتفوقوا وكانوا دوماً الأوائل في كل مرحلة.

مرت السنون على «نعيمة» وزوجها قد ارتقى أفضل الرتب الوظيفية قررت في هذه الفترة أن تدخل الدورات التدريبية في فن الخياطة والتصميم وتنمي موهبتها بشكل متقن وتتعلم بعض مبادىء الرسم لتساعدها على تحديد هذا النشاط، استأجرت محلاً قريباً من بيتها وخصصته لخياطة العباءات النسوية وبعض الجلابيب فاستقطبت نساء الحي، نجح مشروعها نجاح منقطع النظير، لكن أعباء العمل شغلتها عن بيتها فقفلت المحل



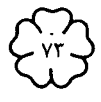
وعـادت تمارس فن الخـيـاطة في فـتـرات مـتـبـاعـدة وبالـوقت والظرف الذي يسمح لها.

إنها تكافح بصبر ليكبر أبناءها ويشقوا طريقهم في الحياة وقد بلغ عددهم عشرة ستة أولاد وأربع بنات وعليها أن تكون قريبة منهم وبينهم وحولهم لتلقي عليهم دوماً ظلال رعايتها وحنانها، تناهت لها فكرة جيدة فالملحق المهمل في فناء البيت يمكن أن تستغله وبالفعل حولته إلى مشغل خياطة وكان جاهزاً باستعداداته الكاملة لاستقبال زبوناتها وفي ذات الوقت شعورها بالأمان لوجودها قرب الأبناء وكانت تلقن نفسها دائماً هذه الفكرة التي استندت عليها في مشوار حياتها «إن العمل ليس بكميته بل بنوعيته وجودته» ففي أوقات فراغها وعندما يسكن صخب البيت وينام الأبناء ويغط زوجها في النوم تخرج إلى المشغل وتباشر في رسم تصاميم جديدة فأفكار مبدعة شغلتها طوال النهار وهي في المطبخ أو تحمم طفل أو تذاكر لإبنة..

أمواج من الإبداع هادرة بتلقائية تنساب على الورق فتنفذها في المشغل، صار لاسمها صيتاً وشهرة بين الناس.

كبر الأبناء وتخرجوا من الجامعات منهم الطبيب، المهندس، المحامي، المعلمة، مصممة الأزياء، الكاتب الصحافي، .... الخ، عشرة أبناء تبوءوا مراكز هامة في المجتمع هم ثمرة كفاح أم عصامية مثابرة مبدعة، فنانة بالفطرة.

بلغ عمرها الخمسين وهي تحدث نفسها:



«الآن بدأ المشوار»

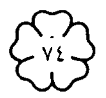
قررت أن تؤسس مشروعها الجديد حلم حياتها يختزل بتجربتها الطويلة، مشغل خياطة على مستوى كبير تستقدم له عمالة من الخارج ومصممين على درجة عالية من المهارة.

وبدأت بتنفيذ الإجراءات القانونية والتجارية بتشجيع من زوجها المحب الذي عرفت كيف تغرس في ذهنه أنها شخصية جديرة بالاحترام والتقدير وقادرة على أصعب الأمور، آمن بموهبتها وتميزها الذي يدعو إلى الفخر.. قدم لها مبلغاً من المال أضافته إلى ما تملكه من مدخرات ثمن أتعابها سنين طويلة أخذت الرخصة التجارية لتسبغ طابع الرسميّة على مشروعها ولم تعرف معنى العجز أو الكبر، فهي بالرغم من غضونها وشحوب بشرتها ناضحة بالحيوية، مفعمة بالنشاط والتفاؤل تبتكر أروع التصاميم وأكثرها استحساناً بين الناس.

داهمها مرض السرطان بعد سنوات قليلة ورقم صغير في ثديها الأيمن، كابدت الألم بشجاعة وإصرار حتى غلبت المرض وأذهلت الأطباء حينما نطقت بحكمة امرأة معجونة بالصبر والإيمان.

«إرادة الإنسان تهزم المستحيل».

اشتهرت ماركة (الأصالة) بين الناس، وتداولتها الشفاه كصنف محبب يستقطب صاحبات الذوق الرفيع، العميلة تدخل



بوابة المشغل الكبير بضيافة حميمة وتحدد طلبها «مفارش، ثياب أفراح، زي مدرسي، ثياب تخرّج، ملابس احتفالية».

المدارس، وزارة التربية تطلب منها تجهيز ثياباً لمناسبة وطنية أو حفل تخرّج أو أزياء شعبية.

إنها في الستين!

هل جف نبع العطاء واستراحت تلك الأصابع الذهبية المنحوتة بدقة إلهية؟

ذبلت عيناها، ووهن جسدها، لكن طاقة الكفاح وحب العمل قوتان تنبضان في عروقها وتسريان كالمصل في دمها، تسعى لتنمو وتتطور وتكبر وكان مشروعها الجديد إعداد وتجهيز غرفة عروس بكل ما تعنيه في طهر ورقة وعذوبة.

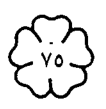
× من أين لكِ كل هذه الأفكار سيدتي؟

تسألها الصحافية في مقابلة تخص مجلة نسائية شهيرة بعد أن بلغ صيتها الذروة واشتهارها في جميع دول المنطقة..

تجيب بتباطىء رزين «عندما تلد في مخيلتي فكرة أشعر بانشطارها إلى أفكار وتدفق ينبض في داخلي فلا أستطيع لها دفعاً بل أستسلم لها طوعاً».

● وما السبب؟

«لأني أحب الحياة ولابد أن أغرس فيها بذرة حتى وإن كان بيني وبين الأجل ساعة».



● وما هو جديدك؟

ارتدت نظارتها الطبية السميكة ومدت يدها بحركة نشطة تحت المنضدة ووضعت أمامي دفتر بسيطاً رسمت على بعض صفحاته نقوشاً وزخارف وزهور.

ثم استطردت وهي تشير إلى هذه الرسوم:

«أصمم موائد الطعام مع إكسسواراتها وملحقاتها حسب المناسبة المطلوبة «عيد ميلاد، عيد زواج، حفل شواء في الحديقة، دعوة عشاء شتوية...»».

وتابعت تشرح أفكارها ببشاشة وانشراح كلها إيمان وتفاؤل وحب..

أذهلتني:

«حقاً إنها صاحبة المليون فكرة!».

بقلم خولة القزويني

www.khawlaalqazwini.com



زوجتان ورجل

«عفاف»

(من قال أن الضرّة مرَّة؟ وأنها الخصم الذي تظل المرأة تحاربه حتى الرمق الأخير من أجل الاستيلاء الكامل على قلب الرجل وجيبه؟ لِما لا نستوعب المعادلة بشكل عقلاني وواقعي، فقد تضطرنا الظروف أحياناً تقبّل الوضع والتكيف مع الحالة حتى الشعور بالرضا والارتياح، هكذا نجحت في أن أرقى بنفسي على أحاسيس الغيرة داخلي كأي امرأة وأسترد زوجي النافر من عشه وأحفظ كيان البيت واستقراره).

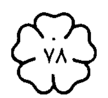
كانت (نسيمة) صديقة العمر التي حفرت في وجداني مكانة مقدسة لا يدانيها إنسان حتى يظن البعض أنني أبالغ أو أجنح إلى المثالية في وصفي العميق لشمائلها النادرة.

على مقاعد الدراسة رسمنا أحلامنا البكر، وأسرجنا من ضوء عيوننا آمالاً كبيرة، فقد عشت حياة أسرية بائسة تفتقد إلى الأمان، فثمة خلافات وصدامات بين أمي وأبي فتضطر أمي إلى ترك البيت أحياناً وأظل أمارس في غيابها دور الأم،



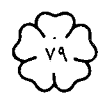
فـأنا الـبنت الكبـرى لثـلاثة أولاد وبنتـان ممـا يدفـعني فـي بعض الأيام إلى التغيب عن المدرسة والتعثر في الدروس، كانت نسيمة تحضـر واجبـاتي وتذاكـر معي لأجتـاز دروسي المتـأخـرة، وتأتيني في المسـاءات الموحـشـة لتسمع هـمومي وتسـاعدني في أعـمـال البيت، وجـدت فـيها نبـعاً للحنان والأمـان، طلّق أبي أمي وتزوج من أخرى وتحول البيت إلى جـحيم.. وشاء الله أن أتزوج من ابن عمي وأنا في المرحلة الثانوية وأترك المدرسة بينما بقيت نسيمة تواصل مشوارها العلمي بنجاح وتفوق واستمرت علاقتنا مفعمة بالحب والعطاء وتنمو في سياق التضحيات التي برهنت على صدق مشاعرنا حتى ضُرب بنا المثل كثنائية متلاحمة، وكنا قد اتفقنا أن ننصهـر أكثـر عبـر تزاوج أبناءنا من بعض حتى نوثّق علاقتنا على كبر، لكن المؤسف أن نسيمة لم يكتب لها النصيب ومن تقدم لها رفضته فطافها القطار رغم أنها مقبولة الشكل ذات مسحة طيبة وطلّة كادحة يعيبها الندوب الحمراء وحبيبات الشـبـاب التي لوثت نقـاوة بشـرتهـا وعـانت من مـرارتهـا زمنـاً ويئست من علاجها ومكافحتها.

وعندما أحمل وألد هـي من كانت تحوم حولـي كمـلاك رحمة تبـاشـر أولادي وتطبخ لهم الطعـام لأن أمـي هجـرتنا ولم نعـد نتذكرها، فقد غـابت وتلاشى أثرها، و(نسيـمة) العطوف الحنون تقبل عليّ في كل مرحلة من حياتي لتقدم لي العون والمساعدة، كثر أبنائي وكان لكل ابن مشكلة، حاجته، متطلبـاته، مذاكرته، لم أكـمل تعليـمي ولم تواتيني الفـرصـة لأثقف نفـسي وأنمي



شخصيتي استعنت بـ (نسيمة) لتساعدني في مذاكرة الأبناء حتى أنهم أحبوها جداً ونادوها «ماما نسيمة»، لا تدخل بيتي إلا ومعها قالب حلوى وهدايا للأولاد، لكني كنت أشعر بذبول شبابها، بحزنها الدفين ورغبتها الملحة في الزواج، وحاولت كثيراً أن أسعى في هذه المسألة وأمهد لها فرص مناسبة لكني فشلت، إنه النصيب الذي ليس لنا يدٌ فيه، شجعتها مراراً كي تعالج حب الشباب الذي تكاثر على بشرتها وترك آثاراً مزعجة ينعصر قلبي كلما وقعت عيني عليها.. وأقول لو أن الناس فهموا جوهرها الطيب ومعدنها الأصيل لغضوا النظر عن هذا العيب، فجسدها متناسق وجميل، عشت سعيدة مع زوجي أحبه بشدة ويبادلني المحبة والاحترام، فبيتي هادئ وعشي مستقر وأولادي ناجحون، وأشعر بالرضا الكامل على حياتي..

بعد إنجابي الطفل السادس داهمتني مشكلة صحية في الرحم وجعلتني في حالة من المعاناة والألم، أضطر في أكثر الأيام زيارة الطبيبة للعلاج، فوضعي هذا جعلني متعبة، مرهقة، شديدة العصبية، كثيرة النرفزة، أهملت نفسي كأن الخط السعيد الذي توافق معي قد انقلب فجأة وحول بيتي إلى فوضى، أخذ زوجي ينفر مني ويتقلب باستمرار ويثير شكوكي، أعدّ له الغداء يغضب مبرراً أن طعمه غير لذيذ، أو أنه غير جائع، أفاتحه بشأن الأولاد يهاجمني ويتهمني بالإهمال، إني أعزز القواسم المشتركة بيننا بينما هو ينفر متبرماً، غاضباً، كم



من المرات عاد إلى البيت متأخراً وأثور في وجهه كالعاصفة الهوجاء:

«هل تصارحني بما يحدث؟»

حدجني بنظرة مشتعلة بالغضب:

«عفاف.. أرجوكِ دعيني أنام».

نهضت من السرير وكل ما بداخلي يغلي:

«صارحني إن كنت متزوج»

سخر مني:

«متزوج؟! ومن ترضى الزواج من أب لدستة أولاد؟».

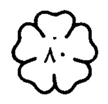
«ربما لك خليلة؟»

«عفاف أنتِ مجنونة، نامي الآن والصباح رباح».

ما عدت أحتمل أهماله وهروبه، خصوصاً وأنا أشعر بملامح الكبر تحرجني مع شبابه النضر وعوده المشوق وحيويته الجذابة.. كأن الزمن توقف عنده وأخذني في قطار سريع إلى مشارف الشيخوخة..

شكوت حالي لنسيمة باكية وأقول لها «لا تتحسري على الزواج عزيزتي، لأنه لعنة وعذاب».

وتواسيني وتشفق عليَّ كالأم الرؤوم، فقررت في هذا اليوم



أن تأخذني إلى الصالون لعل في بعض الإصلاحات أملاً في رأب الصدع.

«له حق أن ينفر منك زوجك، ألم تلاحظي الخصلات البيضاء تتدلى على جبينك قد أعلنت العجز والكبر، وسمنتك المفرطة، لقد أهملتِ نفسك يا عفاف، ابدئي منذ الآن بالاهتمام بجمالك وصحتك واستعادة صباك والحمد لله فإن وسائل التجميل وأساليبه متوفرة وفي أسعار مناسبة..»

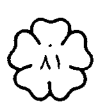
شعرت أن نسيمة قد أعادت لي بعضاً من الثقة في نفسي وذهبت إلى الصالون لأقص شعري وأصبغه بلون أشقر وتجولنا في السوق واشتريت قمصان جذابة، لكن أحسست أن صحتي تخبو يوماً بعد آخر وآلامي تتضاعف.. ولم أعد قادرة على تلبية زوجي.. فلِمَا أخدع نفسي وأوهمها أني مازلت فتية وفي عنفوان شبابي.. حتى جاءني زوجي هذه الليلة مهموماً وفكرت في مصارحته بعد أن قلبت البدائل في ذهني وألجمت هوى نفسي وأنانيتي..

تناول عشاءه وهو كدر مغموم.

- ما بك عزيزي؟

أطرق صامتاً دون أن يتفوه بحرف.

- تزوج، فالرجل حينما ينفر من عشه يعني هذا أنه فقد



السعادة والهناء، وأنا ما عدت قادرة على إسعادك لأني معتلة الصحة وأترك لك خيار الزواج.

قال مستاءاً:

«إنه قرار صعب ومستحيل في ظروفي».

«هل حاولت؟»

بعد تردد، أجاب:

- نعم، ولم تحصل الموافقة.

انقبض قلبي غيرة وحنقاً وفي ذروة أحاسيسي خطرت لي فكرة.

«نسيمة» أظنها أنسب زوجة.

«ما رأيك بها؟»

في انشداه:

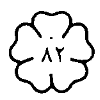
«نسيمة؟ أعتقد أن صداقتكما ستنقلب إلى عداء..

«المهم أن توافق».

واسترحنا معاً لهذا القرار وانتظرت اليوم التالي، اتصلت بنسيمة في وقت مبكر قائلة بلهفة:

«تعالي بسرعة لنفطر معاً».

«خير إن شاء الله».



«عجلي أرجوكِ».

جاءتني تلهث وظنونها تتقلب بين الخوف على حياتي والرجاء في هدوء الحال.

قلت:

«يبدو أن الله لا يريد انفصام عُرى صداقتنا وسيجمعنا حتى آخر العمر».

بدت ساكنة وهادئة تصغي دون أن تتوقع المفاجأة.

ومضيت أمهد الطريق حتى ألقيت بالخبر دفعة واحدة:

«خطبتك لزوجي!».

تسمرت بانشداه وعيناها تحملقان بانبهار».

«أمجنونة أنتِ؟»

وعدت لأهون عليها الصدمة:

«زوجي فكر أن يتزوج وأنا في حيرة من أمري إذ كيف يأتيني بأخرى لا أعرف ماهيتها وهويتها لتغزو داري وتستولي على حقوقي، قلقت من هذا الأمر، اهتديت إليكِ فأنتِ أفضل زوجة يمكن أن تشاركني زوجي لأنك أمينة وصادقة وصافية النيّة لن تنخري في زواجي وتحطمي عشي بل ستبقين كما أنتِ محبة وفيّة حنون.

اعترضت بشدة:



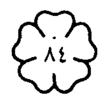
«مستحيل، مستحيل، أرجوكِ لا تضعيني في هذا الموقف المحرج.

وقضيت النهار طوله أقنعها لترضى بهذه الزيجة حتى قُضي الأمر وتمت الموافقة.

فدخلت (نسيمة) بيتي هذه المرة زوجة ثانية، حتى الأولاد فرحوا بشدة، جهزت لها غرفة نوم في الطابق الثاني وتركت لها أيام خاصة تمارس فيها حقوقها كزوجة، صرنا حديث الناس وفاكهة المجالس وسخرية الجارات حتى أن بعضهن حاولن إشعال الفتن والدسائس بيننا لفصم محبتنا، وثمة قائلة أنني حمقاء، غبية لا أحب زوجي فكيف أقدمه هدية إلى امرأة أخرى.

أوصدنا بابنا أمام الإشعاعات المغرضة والكلام المدسوس واللغو الفارغ، شعرت بالاطمئنان لأنني أسعدت زوجي وصديقة عمري وحافظت على بيتي من أن تقتحمه امرأة غريبة تشعل حرباً عليَّ وتعاملني كخصم.

بدت نسيمة تحمل عني أعباء البيت وتتولى الطبخ وكل المهام التي تزهق صحتي، هي من دفعتني إلى السفر للعلاج وشجعت زوجي ليأخذني إلى لندن، قدمت لي مبلغاً كبيراً من المال كانت تحتفظ به لطوارئ الزمن لأباشر العلاج، وتركت بيتي وأولادي أمانة في عنقها، وبفضل الله سبحانه ونعمته شفيت وأظنها مكافأة عظيمة قدمها لي ربي سبحانه لأني قمت بعمل نبيل



وبنيـة خـالصـة، فـعـدت إلى بلـدي في عـافيـة وصـحـة وارتـسـمت أمـائر الفـرح والحـبـور على وجـه زوجي وقـد عـاد سـيـرته الأولى يـلاطفـني ويـحـــبـنـي ويشـكـرني لأنـي من أنـكـرت ذاتـي مـن أجلـه، ووجـدت نسـيـمـة مبـتـهـجـة بحـضـوري، متـهللة بمقـدمي، أعـدت لـي وليـمة رائعـة وجـهزت غـرفـة نومي كمـا العـروس، وكنا نخـرج معـاً في رحـلات عـائلـيـة ونبـاشـر رعـاية الأولاد كـأخـتين ونتـعـاون على إسـعـاد زوجنا فعادت للبيت ضـحكتـه وللعش هدأته، لم يكتب الله لنسـيـمـة نصـيب في الحـمـل، حـاولت أن تتـعـالـج، فـمـا وهنت أو يئست بل رضـيت بقـدرهـا واحـتـسـبت أولادي ذريتـهـا الطيـبـة، فشكرت ربها صابرة.

كنا في المستشفى أنا ونسيمة بعد أن داهمتها نوبة مغص في معدتها فأدخلتها على الفور إلى قسم الطوارئ وأنا في حالة من الجـزع والخـوف، أكاد أفـقـد صـوابي لأنها كـانت تصـرخ من شـدة الألم، وبعد أن حقنها الطبيب لتهدأ .. جاءني ليسأل:

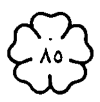
- حضرتك أختها؟

قلت وأنا في حالة من الشرود الحزين:

- بل ضرتها!

بحلق الطبيب في وجهي غير مصدق.

«نعم؟!»



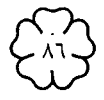
«كما قلت لحضرتك»

قدم لي روشتة الدواء متمتماً:

«ما شاء الله، عشنا وشفنا يا حاج متولي!».

بقلم خولة القزويني

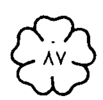
www.khawlaalqazwini.com



«القادمة من الغرب»
الناجحة: كريمة

رغم أنها أوروبية ومسيحيَّة إلا أنها استطاعت أن تذوب في مجتمع شرقي مسلم بل وأثرت فيه إلى أبعد حد،،.

كانت تدرس علم الهندسة في بريطانيا والتقاها «عمران» في إحدى المحاضرات الثقافية تعتمد مقارنة بين نظام حقوق المرأة في الإسلام والغرب، جذبته باتزانها الذي ميّزها عن نساء هذا المجتمع، محتشمة في ثيابها، مهذبة في سلوكها، توّاقة إلى المعرفة، وكان مستقرها الأوحد المكتبة، يلحظها في خلوة محببة مع صديقها الكتاب وعرف من خلال بعض التجاذبات الفكرية والمحاورات الثقافية أنها من بيت ملتزم متحفّظ يخضعها لأدبيات وضوابط أخلاقية، فاجأته بشخصيتها المتمردة وعقلها المتدفق بالأسئلة، في لقائهما الأول استنهضت فيه حاسة الباحث حينما انهالت عليه بسيل من الأسئلة العاصفة في ذهنها «إقنعني يا عمران كيف يبيح الإسلام تعدد الزوجات للرجل، ألا تعتقد أن في ذلك إجحاف في حق المرأة!!» ويختلّ



توازن عمران وتتضارب أفكاره وهب ليبحث في الكتب والمصادر عن ذلك اليقين الثابت الذي لا يقبل الشك ليصيغ لها معرفة مصقولة تتكافىء وقدرتها العقلية ونهمها الفكري، ولم يدرك أنه بذلك أشعل في ذهنها جذوة ظلت متوقدة بتحفّز للتوغل في عوالم الديانات لتسبر أغوارها وتبحث عن منابتها وأهدافها حتى استقرت على شاطىء الإسلام المتناغم مع فطرتها، وقناعاتها النفسية والفكرية.

وهنا كان البدء في تكوين «كريمة» العقائدية حينما خرجت من شرنقة «كاترين» لتنطلق إلى عالم أرحب ويسري في عروقها ذلك الإحساس الهادىء الرزين المستمد روائه من نبع شفاف زلال بإدراك عقل فطن.

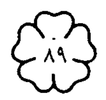
تزوجها «عمران» ليعود بها إلى الوطن فأقفلت مكتبها الهندسي ونظّمت شؤونها القانونية والإدارية وجاءت إلى أسرته المحنطة بالتقاليد المهجنة بأفكار جاهلية، أسرة مقفلة على ذاتها، ثراء بارد تحوطه جدران شاهقة صمّاء، دخلت «كريمة» كنسمة ربيعية في صحراء قاحلة نضب منها كل مصادر الحياة، وفي إدراكها المتفتح على أول باب للإسلام ظنت أن ما قرأته من تعاليمه وأخلاقه ستحسبه واقعاً ضمن بديهيات الحياة المعاشة بين الناس، فلا يسلكون إلا ضمن الأحكام الشرعية، ولا يتعايشون إلا بمقتضى نظام المعاملات، فبُغتت لما رأت ودُهشت أن هناك فجوة بين النظرية والتطبيق، وكانت الحياة داخل هذه



الفيلا الشاهقة صادقة لأحلامها، عيون النساء ترهبها فهي رقيبة عتيدة تتصيد سقطاتها، استرخت أعصابها لأول وهلة، ثم ما لبثت أن اتخذت موقعها المقترح في المكان بهدوء ورويّة، فهي قادمة من الغرب في نسيجها تركيبة كيميائية معكرة لصفوهن النفسي، لهذا فالانسياب في عروقهن يحتاج إلى مهارة وصبر، فهي جسم غريب يدخل في منظومتهم الأسرية تُلفظ في اللاشعور وإن حاولت النفس أن تهضم الموقف.

عاشت كريمة في ذلك البيت الكبير الذي كان أشبه بقصر من قصور الأمراء تكابد التكيف في غياب زوجها «عمران» المنهمك في إدارة شركة أبيه الضخمة فقد أوكلته الأسرة بهذه المهمة بعد وفاة الأب.

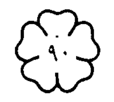
على مائدة الإفطار تجتمع العائلة المكونة من الأم والأخوة الثلاث وزوجاتهم وأخت عانس في الخامسة والثلاثين، ويستغرقهم التجهم في حضورها المشرق تأخذ مقعدها بعد أن تُلقي تحية باشة، هم يضروبون حولهم أسواراً من الصلب المتعنت وهي تدكها بلطافتها كي تخترق هذا الصمت وتذيب سطوح الجليد لعلَّ هذه الحصون تنهار يوماً وتعبر خنادقهم المشتعلة بنيران النفرة والبغض، متوددة تعرض مواقفها المتجاوبة بشكل متحبب، عندما شعرت بأولادهم متعثرون في اللغة الإنجليزية بادرت في معالجة هذا القصور، جمعتهم في إحدى غرف القصر ورتبت لهم ثلاثة حصص في الأسبوع مدعمة بمهارات وخبرات نامية لشخصياتهم فالتف حولها الأبناء



بحميمة وانجذاب وسقط أول معقل من معاقلهم فانشقت البسمات على الوجوه العابسة.

ومن عادتها المحفّزة لعزائمهم الفاترة وهممهم الخاملة أن تستيقظ في طلعة الفجر تتمشى في حديقة الدار ثم تتناول عصير الجزر وتنتبه إلى يقظة «الخالة» باكراً فتعد لها كوب الحليب الدافىء المُحلى بالعسل «إنه أدعى للصحة والشفاء يا خالة» تُقبّل رأسها وكفيها بخضوع مهذب تنكمش الخالة خجلاً متوارية بقناع الصمت الذي ما انفك يتمزّق كلما باغتتها «كريمة» بموقف محبب، حسدتها زوجات الأخوة ونسجن حولها الحكايات الباطلة فأصمت السمع متجاهلة فإذا بسهامهن ترجع إليهن خائبة، إنما كانت تنثر رياحين المواعظ في دعابات خفيفة وطرائف ظريفة، «ماذا يعني أن تذكر أخاك بما يكره في غيابه، لا أعتقد أن رقيك الإنساني يدفعك إلى نهم من ذلك النوع الخسيس» تقولها في قرف من تؤمن ببشاعة هذا السلوك البغيض.

بدأ الأخوة يميلون إليها ويصفونها بأحسن الصفات، تدهشهم بشخصيتها الفذّة وقدرتها في التحكم بأعصابها، هل شعروا بالفارق الشاسع بينها وبين زوجاتهم المسرفات في اللهو الفارغات من المضمون يستهويهن الهمز واللمز في أحوال الناس والتسكع في الأسواق والمقاهي وإن تحدثن فبأقوال مسطّحة تظهر شحوبهن الشخصي ونضوبهن الفكري.



هذه المرأة المتعقلة التي تخبىء في أعماقها نهماً إلى المعرفة تبحر في عالم الكتب وتبحث في تفسير القرآن وتتعمق بوعي في بواطن الأمور، وأسرار الحقائق.

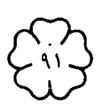
تأتيها الأخت الصغرى مضطربة تداري سراً تفضي إليها بتردد لكنها تغالب هذا التردد بإقبالها العاطفي، أصغت إلى «نجاة» كريمة، أحب رجلاً متزوجاً ويريد أن يتقدم لي لكني أخشى من رفض العائلة له ولا أريد أن أفرِّط بهذه الفرصة أظنها الأخيرة».

وتبحث «كريمة» هذا الأمر مع زوجها «عمران» وتخص هذا الرجل بدراسة وافية إذ اكتشفت أن له أطماعاً فقد استغل حاجة فتاة عانس فاتها قطار الزواج..

«كيف عرفتِ؟» تسألها نجاة

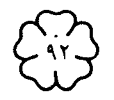
«كريمة: لقد بحث أخوك في الأمر ملياً واكتشف أنه جاء ليتزوج دون علم زوجته المسيطرة التي استحوذت على البيت وأنفقت وأعالت كل فرد فيه وأعتقد أن هذه النوعية في الرجال مريبة لا تصلح أن تؤسس بيوت آمنة».

هوت «نجاة» في بئر الحزن والحرمان ومسها طائف من الكآبة الشيطانية التي توهمها أن الناس حولها أعداء يخططون لتدميرها، فتاة في الخامسة والثلاثين تتساقط أوراقها الذابلة فتنكفىء في وحدة مريرة. ففكرت «كريمة» في انتشالها من هذا المستنقع عبر رحلات وسفر وتأخذها لتتريض معها على



شاطىء البحر وبين المروج الخضراء وبذرت في ذهنها فكرة مشروع وكان الاتفاق على تأسيس محل لبيع الزهور، فاستأجر لها عمران إحدى المحلات القريبة من البيت واستخرج لها رخصة تجارية لتباشر في استيراد الزهور من هولندا وبتحريض من «كريمة» استعجل إتمام هذا المشروع بكل حيثياته القانونية، وبدت فكرة رائعة أخرجت «نجاة» من عزلتها وفرّقت أغلال وحدتها، أحست بأهميتها فكان هذا دافعاً لأن تتعلم مهارة تنسيق الزهور لتباشر العمل في محلها الجديد، وكم هي سعيدة بحياتها الجديدة متهافتة على عملها كل صباح بعد أن كان يومها مسربلاً بالضياع والعدم وساعات مبعثرة يغذيها الخواء والملل.

انتظمت الحياة في ذلك البيت الكبير وذاب جليد الروتين ودبت الحياة المترعة بالبهجة في أوصاله، بيد أن الغيرة تضرم نارها في قلوب زوجات الأخوة اللاتي اتفقن على طردها من البيت حينما أوغرن قلب الخالة حقداً، يوم أن شاركت «كريمة» زوجها «عمران» في إدارة نشاطاته الإدارية فهي تملك قدرة وخبرة في هذا الجانب وكان يستشيرها حينما يتعرض لخسارة إذ يثق بآرائها وتحليلها الاقتصادي المحنك ولم تدخر جهداً إلا وبذلته في هذا المجال فالشركة تمثل ثروة العائلة وأرباحها تعود على كل فرد فيها، لم يكن أمامها إلا أن تتصلب بإرادة شامخة أمام ذلك الهجوم العاصف بعد أن طالتها شائعة فرقت فؤادها



«الطامعة في الثروة» «المتسلقة على أكتاف زوجها» عمران هو أمل الأم التي ترملت شابة وأوكلته مهام الأسرة، ولأول مرة في حياته تقتحم هدوئه. الأم الحنون بصوت يخدش رجولته: «الماكرة رسمت خطتها جيداً والآن تستولي على ثروة الشركة» إنه غير مدرك لبواطن هذه التهمة فبقي معلقاً بين الشك واليقين ومتحيراً في مقاصد التهمة قال مبرراً: « إنها تنظّم معي بعض الجوانب الإدارية فقط فهي سيدة أعمال لها مكتب في لندن ولا أبخسها الخبرة

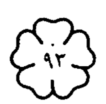
وتصرّ الأم بحدّة «وهل عجز الأخوة لتستعيض عنهم بهذه الأجنبية؟.

- «يا أمي هذه الأجنبية أسلمت وصارت واحدة منّا وتخاف الله ولا تضمر السوء لأحد».

- «كلهن على شاكلة واحدة، يستعمرن قلوبكم ثم ينهبنكم ويرحلن إلى غير رجعة».

- «إذا كان هذا الأمر يزعجك فلتنتهي اليوم».

ما كانت «كريمة» تقبل على نفسها تلك التهمة فقررت أن تستقل عنهم في شقة خاصة خصوصاً وهي تعاني من غثيان الحمل، فانسحبت دون أن تثير زوبعة أعدت حقائبها وجهزت عدتها وفي ابتسامة غائمة وقفت بين أيديهم مودعة.

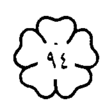


- «أحبكم جميعاً، وأشكركم على أجمل أيام قضيتها في حياتي، كانت تجربة رائعة، علمتني أشياء كثيرة».

تبادلوا النظرات في صمت ثم أطرقوا لا ينبسون بحرف..

لم تفكر مطلقاً في إشعال أوار الفتنة وإثارة الشكوك، فالحكمة التي تقتضيها الحالة أن تركن إلى العزلة بعيداً عنهم كي لا تُستثار غوائلهن فتكبر الهوة بين الزوج وأهله، حتماً سيأتي ذلك اليوم الذي يتبدد فيه الضباب وتنكشف الحقيقة.

بعد أشهر قليلة عرفت أن الخالة أصيبت بجلطة أسقطتها في الفراش شبه مشلولة فعادت إليهم مشفقة، التقطت بحدسها مدى تثاقل ابنتها وزوجات أبنائها عن مداراتها ومباشرتها اليومية التي تحتاج إلى صبر وأناة فكل من في البيت ضجر من الأمّ ومن طلباتها التعجيزية، وأصبح كل يلقي بالمسؤولية على الآخر في مناوبات ثقيلة حتى الابنة التي شقت طريقها بأنانية مفرطة وانخرطت في توحدها الجنوني فقد حولها حرمانها العارم إلى كيان قاسٍ لا يرى الآخر إلا بعين المنفعة، وهذه العجوز المركونة في وحدتها المهملة المقصيّة عن حياتهم تنادي والكل يتجاهل أو يتكلف مساعدتها فتتحمل «كريمة» عبء رعايتها، وقرأت في عيونهم التماساً بالعودة واستذلالاً مريعاً كي تعود لهم وفعلت باختيارها وكابدت بصبر تحقن الأم، تمسّجها، تُطعمها، تسقيها الدواء، وفكرت أن تطير بها إلى لندن وهي لها أكثر من الأم وأشفق من الابنة متراوحة



بين هذين الإحساسين النبيلين معطاءة، باذخة كل العطف فاستحوذت على قلوبهم وتمكنت من نفوسهم، وأقرت لهذه الأسرة قوانين وبروتوكول احترمه الجميع وانصاعت له زوجات الأخوة صاغرات، فكانت هي القطب المتوحد بالسلطة بعد وفاة الأم.

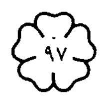
امرأة كاملة الدسم

«نشوى»

(من يصدق أن شجرة الجميز قد تتحول إلى غصن ريحان هفهاف خلال أشهر؟

هكذا قررت (نشوى) المرأة التي ما أن تخطر في الشارع حتى يتغامز عليها الناس ضاحكون، يحملقون في جسدها المرعب بسخرية وإشفاق، فقد صرعت سمنتها بإرادة وتصميم، فكيف نجحت في هذه المعركة؟؟).

بعد إنجابها الطفل الأول وانشغالها بأمور الحياة الزوجية أخذت (نشوى) تهمل جسدها الآخذ بالاكتناز، فبمجرد أن ينام طفلها تخلد إلى الراحة لأن أعباء المنزل وشؤون الزوج ورعاية الطفل تجهد قواها ناهيك عن الرضاعة التي تحرض شهيتها للحلوى وسعادتها بطفلها غيبها عن استحقاقات ذاتها كأنثى، بل وجدت نفسها تغرق في الأمومة وتنتشي برحيق طفل قبلاته كالشهد.



وحملت بالطفل الثاني ورقعة جسدها تزداد اتساعاً، فإذا بثيابها القديمة تُلقى على الخادمة كنفايات بائسة، لا تحب أن تحتفظ بها في الخزانة كعبء.

ذهبت إلى محل (إيفانز) لتشتري ثياباً بمقاسات أكبر، بدأت حركتها تثقل وحبها للكيك يتحول إلى نوع من الإدمان تخرج مع صديقاتها إلى مقاهي (ستاربكس) لتأكل كيكتها المفضلة (وشراب الكابيتشينو) متعتها الوحيدة في الحياة ومذاق السكر الذي له فعل الخدر النفسي، والتسلية التي تنتظرها بفارغ الصبر، فهي مهملة من زوجها لم تعد تحظى باهتمامه كالسابق كلما توددت إليه يعرض عنها منكمشاً، والحيرة تدفعها إلى التساؤل (ما سر إعراضه؟) فهي تحبه ومتفانية في واجباتها الزوجية، ما سر جفائه؟ وكلما تباعد عنها رمت نفسها في حضن الشلة مرتادة المقاهي، تشتكي لصديقتها (ضحى) إعراض زوجها وبرود علاقتهما الحميمة، تشير عليها (صارحيه بما تعانين فلِمَ كل هذا الانغلاق على ذاتك؟).

وفعلت (نشوى) فما كان رده إلا مقتضباً، قالت متحسرة (لِمَ لا نخرج في نزهات عائلية كسابق عهدنا، يهمني جداً أن نتصالح مع بعضنا دوماً).

وخرجوا في نزهة مع الأولاد، وكانا طوال جلستهما في المقهى صامتان، الخادمة أخذت الأطفال الثلاثة إلى الألعاب بينما بقيا لوحدهما كالغريبين يتبادلان نظرات عائمة في

الفراغ، لكن حدث ما فجّر الموقف وذوب جليد الصمت، مرت شابة رشيقة ضامرة البطن، منحوتة الخصر، تميس كالطاووس زهواً ودلالاً، شدت إليها الأنظار وبقي زوجها مبهوتاً يختلس النظر إلى هذه الفتاة فور أن اتخذت مقعدها في المقهى.

عنفته زوجته:

(ألا تخجل من نفسك، لقد بات منظرك مستهجناً وأنت تلتهم الفتاة بعينيك، فلنقم من هنا).

احتقن وجهه وارتعدت فرائصه، فهب على الفور:

(هيا فلنترك المكان).

دفع الحساب دون أن يتناولا طعامهما، أخذا أولادهما ورجعوا إلى البيت.

بغيظ تؤنبه نشوى والغيرة تنهشها:

(احترم وجودي، احترم غيرتي عليك).

ضحك ساخراً:

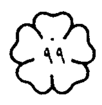
(وهل ألقيت نظرة على نفسك في المرآة حتى لا تلوميني).

ارتبكت وصوتها يتهدج (ماذا تقصد؟).

قال متهكماً:

(ألا أظن أني متزوج من امرأة!).

التفتت إلى المرآة المعلقة على جدار الصالون وتذكرت مشية



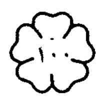
الفتاة الغزلانية القد وأحست بنفسها مرمية من شاهق، جزعت لسمنتها المستهجنة وجسدها المتراكم الشحم، ازدردت ريقها وهي لا تكاد تسيطر على أعصابها، هوت على الكنبة مطرقة... بينما تركها زوجها والشرر يتطاير من عينيه.

جاءت إليها الخادمة بكوب (الكابتشينو) المفضل عندها كل مساء، نهرتها بشدة:

(خذيه لا أطيقه الآن).

دخلت حجرتها وخلعت ثيابها وتفحصت جسدها على مهل ويالهول ما رأت، أكداس من الشحم المقرف على البطن والزندين والفخذين وسمنة أضافت لعمرها الفتي سنين، بكت بحسرة بعد أن استوعبت مظهرها تماماً واستلقت على فراشها تفكر ملياً في حياتها الزوجية إذ أخذتها حياة الدعة والراحة وصمت زوجها المتواطئ مع إرادتها الضعيفة فنهمت الطعام وشرهت إلى الحلوى بجنون.

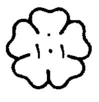
دخلت الحمام ووقفت على (جهاز الوزن) الإلكتروني الذي زلزل أعصابها حينما فاجأها برقم خيالي (١٠٥) كيلوا المتنافر مع طولها (١٦٠ سم)، اندلعت داخلها نيران الحسرة والندامة ما بها نست أو تناست رشاقتها في خضم شعورها الأمومي؟ ما بها استرخصت أنوثتها مبررة أن الذرية تلزم الزوج على التعفف؟ نسيت أن هناك وصلاً من التفاعل الكيميائي بين أنوثة



المرأة وذكورة الرجل وهذا الوصل تغذيه عوامل الجمال والجاذبية والغواية الفطرية، لِمَ تركت أولادها يغيبون شواردها ويستحوذون عليها كاملة؟ إنها امرأة مرهونة لذلك الزوج الذي انتخبها دون غيرها لإشباعات حسه الذكوري، تذكرت وهي غائمة الإحساس محبطة المشاعر أنها ينبغي أن تخسر كل هذه الشحوم المقيتة وأدعى لها أن تهجر الأطايب والحلوى الروعة التي تدغدغ مذاقها بالسكريات، المقاومة صعبة جداً، تغمرها التعاسة إن لم تأخذ حصتها في اليوم، حتماً ستعاني، ستكابد صراعاً نفسياً حاداً، إذ كيف تقمع هذه الرغبة عند نزهتها مع الشلة في المقاهي؟!

قررت أن تتبع حميّة قاسية قرأتها في مجلة، وباشرت في إعداد وجباتها حتى تخسر ١٠ كيلو في الأسبوع كما هو مفترض في هذا البرنامج.

وكان اليوم الأول عذاب وهستيريا، الشاي دون سكر وحبة توست جافة، بيضة مسلوقة، ورغبتها في الحلويات تنهشها كما حاجة المدمن إلى المخدر بعد طول إدمان، انتابتها حالة من العصبية وضجر قاتل دفعها إلى النوم والخمول، تنفجر على زوجها كالإعصار كلما لاطفها بعبارة (كاملة الدسم) كأنه المتهم الذي قتل متعتها في الحياة وحبسها في سجن الحرمان، ومضت تراقبه موسوسة وكأنه سيخونها مع كل امرأة رشيقة، تدخل معه في مشاجرات بسبب العارضات والممثلات (هن من



أدرن عقول الرجال، هن من أفسدن الذوق، أشارت إلى عارضة في التلفزيون غاضبة: هل هذه المصوعة أجمل مني؟!).

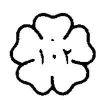
يلوي شفتيه متهكماً!

بعد معاناة أسبوع وقفت على (جهاز الوزن) فإذا بفرحتها تتبدد فقد خسرت (٣ كيلو فقط) نتيجة خائبة ومريرة أمام غول الحرمان وهو يفترسها بتباطؤ ثقيل وبررت فشل النتيجة أنها في بعض المرات تناولت قطعة حلوى مضطرة لأنها شعرت بالدوخة والوهن!

وفي إحدى الزيارات اضطرت أن تجامل حماتها فأكلت قطعة صغيرة من البسكويت والاضطرار أحياناً يبيح المحظورات!!

عادت سيرتها الأولى بعد أن حنت إلى شلة الصديقات ومقهى «ستاربكس) هنا التهمت الحلويات بأثر رجعي!

وتتفجر معاناتها من جديد وشعورها بالحرج خصوصاً عندما سافروا إلى منتجع صيفي يقتضي منهم الركض والحركة والنشاط كان زوجها يبدوا أصغر سناً منها، رشيقاً متناسق الجسد، تنكمش محبطة، عزّت عليها نفسها كيف تهوى إلى هذا الدرك من الرغبات الدونية، كم تشعر بالنقص وهي تسحب ثقلها بمشقة وسط سرب من الظباء يتهادين في المنتجع بثقة وابتهاج.



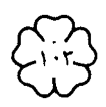
عادت لحجرتها مغتمة فارة من عيون الناس الساخرة وتعليقات الأطفال الجارحة وزوجها المتهارب عنها يفتعل الانشغال بالأولاد درءاً لحرجه من سمنتها.

الوزن في ازدياد والإحباط ينخر في إرادتها فاعتزلت الناس ولفتها كآبة مضنية ولفرط خجلها من زوجها انطوت على نفسها في حجرة خاصة، يؤلمها أن تقع عينيه على جسدها المشوّه فيستتكر في قرف، تجرحها تعليقاته السمجة حينما يصفها (امرأة كاملة الدسم).

فكرت في إجراء عملية (شفط الدهون) وأخذت تسأل وتتصل وتبحث في هذا الأمر حتى عرفت أنها مخاطرة فبعض المرضى توفوا!.. تعاطت الأعشاب الملينة لفترة حتى تعب عندها القولون، وبقيت تتخبط في حميات مختلفة ووزنها في صعود وهبوط واليأس يفترسها ويدمر كل أحاسيس الأمل داخلها.

وفي وحدتها البائسة قررت أن تنتشل نفسها من هذا الانهيار وأن تحارب ضعفها وتصارع رغبتها وتجتهد كي تستعيد رشاقتها، انتفضت مستدركة بوعي كان ينقصها الإصرار والمثابرة، عاهدت زوجها أنها لن تطأ فراشه إلا وقد ولدت من رحم المعاناة والحرمان (نشوى جديدة).

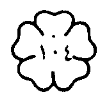
وأصرت هذه المرة وتحدت نفسها، جمعت قصاصات من المجلات وألصقتها على الثلاجة أطباق شهية من الحلوى والكيك وإلى جانبها (المحصلة) دهون مشفوطة من جسد امرأة



بدينة وألصقت صور العارضات والرشيقات في حجرتها وعلى مرآتها وفي الحمام.

ذهبت إلى طبيب متخصص في الرجيم والغذاء جمع كل البيانات الخاصة بوضعها الصحي من وزن وطول ونسبة ماء ودهون وعضل وسلولايت ونسبة السكر والأملاح في الدم، ثم قدم لها برنامجاً غذائياً مناسباً وقررت أن تمشي على ساحل البحر كل يوم ساعة وكلما زادت لياقتها تضيف نصف ساعة والتزمت به كفرض وواجب لا تهمله مهما كان السبب والعائق، وكانت المعاناة مريرة وعذابها شديد، خصصت الاثنين والخميس لصيام الاستحباب كي تصقل إرادتها، ثم قرأت كتب كثيرة عن النجاح والإرادة والإصرار، أخذ مزاجها ينشرح بالتدريج بعد أن انتصرت في معركتها الشرسة فعندما قطعت الشوط الصعب في المرحلة الأولى هانت عليها المراحل الأخرى، استعانت بالرياضيات الروحية والنفسية فشهوة البطن البهيمية أخذت تتهذب في ذاتها وشعرت بسعادة روحية بالغة لأنها قمعت هذه الملذات التي كانت تأسرها في نطاق ضيق، وتذكرت نعمة الجمال والرشاقة وحب زوجها ونشوة النصر على ضعف النفس وقوة الإرادة.

أخذ وزنها في الانخفاض التدريجي وبشكل طبيعي وصحي ودون أية مؤثرات سلبية أخرى، وحماستها تتقد ودوافعها تشتد وحافزها ينشط، بعد ثمانية شهور تسترد (نشوى) وزنها (٦٥



كيلو) مبتسمة بثقة، مبتهجة، متصالحة مع نفسها، يدخل زوجها البيت فتبهره بشكلها الجديد، شابة رشيقة ترتدي الجينز الضيق قد لف خصرها النحيل ونحت استدارتها بأنوثة بديعة، تسمّر مدهوشاً فاغراً فاه:

(أحقاً هذه نشوى؟)

(عدت أجمل من السابق، أقصد يوم خطبتكِ!)

تغمز عينيها بدلال:

(بل وأجمل من فتاة المقهى!)

بتخابث يسأل (أية فتاة؟)

هزت كتفها متغنجة (التي نبهتني إلى علامة الخطر!).

بقلم خولة القزويني

www.khawlaalqazwini.com

«التحدي الأكبر»

(هو أن تثبت أنك قادراً على العطاء في حالة الإعاقة أفضل بكثير وأنت سليم مُعافى)

بروحية شجاعة وعزم وكبرياء تحولت الكاتبة الصحافية «رابعة» إلى أديبة كبيرة يُشار لها بالبنان وهي معوقة.

فما هي قصتها؟ وما هي حكاية ذلك الشارع؟

رشيقة هفهافة، في بنية دقيقة مائلة إلى القصر تقطع «رابعة» «شارع ٢٥» الذي يفصل شقتها الصغيرة عن مبنى المجلة التي تعمل فيها صحافية في قسم التحقيقات، تسرح بخفة غزالة تائهة في المروج وحقيبتها المنتفخة بالورق تكاد تسقط من يدها.. هكذا خُلِقَت عجولة تسابق الريح إن داهمتها فكرة لابد أن تضعها في حيز التنفيذ.

هذا الصباح شربت قهوتها المُرة مع قطعة الدونت المفضل في فطورها كل يوم وزوجها (ناجي) مازال يستحم ويتمهل في طقوسه الحياتية ودائماً تمازحه قائلة «يا سلحفائي العزيز».

تأكل طعامها وتُجري اتصالات هاتفية سريعة، تدور حول نفسها تفكر، ثمة أمر يشغل بالها، الساعة العنيدة تصر أنها الغالبة في هذا السباق المحموم.

طرقت باب الحمام تحدث زوجها «ناجي» «أنا ذاهبة إلى المجلة لأتعجل حدث افتتاح معرض الكتاب، وقد جهزت فطورك في المطبخ، مع السلامة».

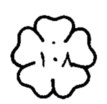
تأتيها همهمة منقعة بماء الدوش «في أمان الله».

اتجهت بكامل حماسها إلى الخارج وهي تمضغ آخر قضمة من الدونت وكعادتها كل صباح وقفت تنتظر مرور السيارات لتعبر نحو الرصيف الآخر وعيناها التائهتان تغرق في فضاء الفكر والوثبة العصبية التي لم تتمهل قدرها خانتها، فإذا بها صرخة مدوِّية تشتت بصرها «انتبهي سيدتي».

أخطأت التقدير، وارتبكت في تشخيص المسافة، ضجة الحادث استوقف المارة، تجمهر الناس حولها مشفقين والذعر قد أخذهم كل مأخذ «سلامات ألف سلامة سيدتي».

اتصل أحدهم بالإسعاف، اضطراب وبلبلة غمرت الشارع الأسطوري الذي ظل دائماً في ذاكرة أديبة شابة قهرت الإعاقة فكانت عَلَماً في الأدب.

أيام طويلة قاست فيها «رابعة» المرارة والألم، محاولات يائسة استنفذها الأطباء لاستعادة الحياة إلى تلك الساقين



النحيلتين، عاد زوجها من حجرة الطبيب مطرق وبفطنتها استقرأت في عينيه حزن قاتم.

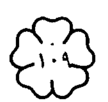
بادرته بكبرياء:

«أنا مؤمنة بقدري».

هزَّ رأسه في يأس دون أن ينبس بحرف.

عادت «رابعة» إلى شقتها «مشلولة الساقين» اشترى لها زوجها «كرسياً متحركاً» حكم على حياتها بالعجز الدائم.

جلست في غرفتها المظلمة تذرف الدموع بعد أن تقلت هاتفاً مزعجاً من مديرها، يطمئنها أن مستحقاتها جاهزة، قد يكون الأمر متوقعاً لأغلب الناس لكنه طعنة قاتلة في صميم حياتها وهي تُعدَم بهذا الشكل المباغت والسريع، تستعيد شريط نشاطها في الماضي حينما يصفها الآخرون بـ «دينامو» المجلة إذ سبقتهم في أعمالها المميزة، وتحقيقاتها الجريئة واقترابها من هموم الناس، كانت تقترب من الفقراء وتتابع معاناتهم بإحساس مشفق ولم تفكر يوماً بأن تطحنهم إلى ذرات لتعجنهم في قالب درامي مثير حتى تنسب الفضل إلى قلمها، إنما تلتقط آلامهم وشقاءهم لتدافع عنهم، وتكشف مواطن القصور والإهمال، حصدت شهادات التقدير بوقت قياسي فهي مؤمنة برسالتها، محبة لعملها، مغامرة إلى حد الاستشهاد، حتى أن بريدها الإلكتروني كان مشحوناً بآهات المعذبين، مبتلاً بدموع المنكوبين، يستغيثون بقلمها الشفاف وإحساسها المرهف ليستنفر



المسؤولين النائمين في العسل. جرأتها في المرة الأخيرة جعلت منها بطلة استحقت مكرمة رئيس التحرير، «سجن النساء» وكيف تتحول المرأة تلك المخلوقة الناعمة إلى قاتلة؟

أما اليوم فهي أمام مفترق طريقين إما أن تعتبر نفسها ميتة قد تعطلت قدرتها وانشلت مواهبها للأبد أو تنجو بنفسها من وحل الإحباط والهزيمة مستنهضة كل قواها الداخلية لتبدأ من جديد.

التفتت حولها شاردة ثم استقرت عينيها على السرير وتنهدت بحسرة وهي معرضة عن الاستغراق في حكاية أنوثتها دخل زوجها «ناجي» وأضاء الحجرة مندهشاً «ما بكِ جالسة في الظلام؟».

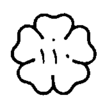
اقترب منها مأخوذاً بصمتها الحزين وقد شمل في تأثيره حتى الجزيئات الصغيرة في الحجرة، تفاجأ بها تتحاشى مواجهته وتدفع بالكرسي في اتجاهات عشوائية.

وبنبرة حادة تقول:

«لم أعد أناسبك كامرأة والأفضل أن ننفصل أو تتزوج أخرى تلبي احتياجاتك كرجل».

ثم انفجرت باكية تغطي وجهها بكفيها بانفعال هزَّ كل خلية في بدنها.

وبقي ناجي عائماً في إجاباته، يهمش هذه المشكلة الطارئة



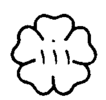
في حياتهما ويضللها بحكايات نشاطه التجاري، وتوهمه «رابعة» أنها تصدق هذه المتاهات بحماقة تضعهما معاً في وضع مريح.

استغرقت هذه الليلة المقمرة في ذاتها وحدقت في السماء الصافية عبر نافذتها المطلة على الشارع، ما الذي أرقها واستحوذ على تفكيرها؟

قصة واقعية لحبيبين التقيا بعد سنين في مترو باريس وهما في السبعين «كان مخطوبين ينتميان إلى إحدى قرى لبنان، المانشيت كان يقول «افترقا صبيين والتقيا عجوزين».

كانت الحرب دائرة بين طائفتين أثار فتيلها المحتل الفرنسي فكان حصادها قتلى من الطرفين بعدها هاجرت الفتاة مع أهلها إلى كندا وانفصلت عن خطيبها لأنه من الطائفة المعادية لطائفتها وهكذا أسدلت الستارة على مذبحة شرسة أكلت الأخضر واليابس وفرقت بين قلبين.

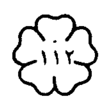
هناك شيء في ذهن «رابعة» ويذكي قريحتها المخيلة المبدعة، وتعصف بأمواج متلاطمة من الأفكار تتعانق وتتشكل بصورة تصاعدية ثم ما تلبث أن تتفكك بهدوء، يتعمق فيها الإحساس وينضج حتى الذروة والزمن يترتب في سياق معقول، إنها لا تدري كيف تتفاعل أصابعها بهذه الأحداث فتضرب على أحرف طابعة الكمبيوتر فتنسق الجمل وتنظم العبارات، تصفق منتشية وترفرف بذراعيها كعصفور طليق إنها مشاهد تنبثق من داخلها بنسق روائي مذهل فهي منكبة على الكتابة ليل نهار تأخذها



شخوص الرواية إلى عوالمها الجغرافية وأزمنتها البعيدة، تكتب دون أن تشعر بالطقس حولها فالزمن في خائلتها رهين أبطالها المعذبين وزوجها «ناجي» يسافر ويرحل قد طلب لها خادمة ترعى شؤونها، حدسها الأنثوي ينبئها أن لزوجها مناخاً جديداً يحاول تعتيمه بالغموض والسريّة منتحلاً بعض الحيل الساذجة، وهي في ذروة انفعالاتها الأدبية تسطح كل إحساساتها الطبيعية وتخضعها تحت سلطان موهبتها، بدءاً من ذلك اليوم تسربلت في سحابة ضبابية تأخذها في طيف سماوي إلى أشجار الصنوبر ورائحة العشب الندي وطعم الزيتون المرّ، ونهلة ذات العيون الخضر تودع «باسل» خطيبها القروي المتوثب كالنمور.

تتفق «رابعة» مع المجلة على نشر فصول روايتها كل أسبوع بمكافأة مادية معقولة وتم إبرام العقد فقد كانت تطعم روايتها بحقائق من كتب التاريخ عن تلك الحقبة الزمنية الحساسة وتستجمع مشاهد الغزو الفرنسي ودروه في اعتقال المناضلين من بعض الأفلام وتطوف في سياق الأحداث على ظاهرة الفتن الطائفية التي يستثيرها الغزاة دوماً ما بين الملل والفرق بإذعان من سياسة «فرّق تسُد» الاستعمارية، تسخن الأحداث بنفس درامي مثير وهي تحلق بين الفصول عبر خيال الفكر ومشاهد الواقع.

القرّاء يتهافتون على المجلة لمتابعة أحداث الرواية.



من أين أتت لها هذه المهارة والقدرة على حبك الفصول وجذب الناس بهذا التسلسل الدراماتيكي المؤثر.

زادت مبيعات المجلة، وتضاعفت أجرتها، عرضت عليها أكبر دور النشر في المنطقة طباعتها ضمن حقوق مادية خرافية. فهذه الرواية أثارت ضجة أدبية بين النقاد والمثقفين،طلب منها أحد المخرجين تحويلها إلى فيلم سينمائي بعد أن يتم تعديلها بسيناريو مبسط.

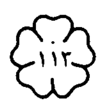
المعارض أعلنت أنها أكثر الروايات مبيعاً في هذا العام.

وفي احتفالية رائعة قدمت لها الدولة جائزة تقديرية أتت تسرح بمقعدها المتحرك نحو الميكروفون والصحافيون ووسائل الإعلام، والناس، المعجبون، القرّاء، جمهورها المتعطش جاء لرؤيتها واكتشاف عبقريتها، يتابعها بإبهار وهي تتحدث:

«إن لم أكن أملك قدمين لأمشي فإن لي قلب يسع كل الناس ويدفعني إلى الاستمرار في العطاء بحب وتفاؤل»، صفّق لها العالم كله عبر الفضائيات، وكتبت عنها الصحف تلك المقولة «حينما يكون العجز دافعاً إلى النجاح والشهرة»

وفي مقابلة صحافية قالت:

«عندما يهزمك العجز تتحول إلى ذرة مرميّة على التراب تُداس تحت الأقدام وحينما تهزمه تسطع كنجمة متألقة في سماء العظماء».



هكذا نسجت خيوط حياتها ففي دراما إنسانية أخرجت كل ما بداخلها من طاقة وطموح وعذاب.

ترجمت روايتها إلى عدة لغات في العالم، هذه المرأة المقعدة كانت بعد سنين عجزها سيدة الإبداع الروائي بلا منافس، الهالة الهادئة أسرجت حولها ألقاً جذب إليها زوجها المتباعد فعاد ليطويها تحت جناحيه في حنان.

كلما نزلت إلى هذا الشارع تجتذب إليها الناس وتستقطب كاميرات الصحافة، هذا الشارع الذي شهد حادثة الإبداع وانحراف المصير نحو أُفق جديد، تعود إليه هذا المساء بعد أن ألقت في كلية الآداب محاضرة حول «نقد الرواية العربية». تسير سيارتها في هدأة الليل، والرصيف ساكن والشارع صامت قد خلا من المارة أطلت من النافذة تستحضر الذكرى وعيناها ساهمتان في الفراغ أنشدت:

يا شارع نكبتي ونجاحي وفرحتي

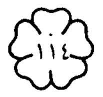
هم رحلوا إلى مضاجعهم ونسوك

وبقيت وحدي في كل قصة أتذكرك

إذ كان لهذا الشارع بصمة في حياتها تستهل بها كل قصة أو رواية تكتبها:

أيتها السيدات والسادة

أكتب لكم من (شارع ٢٥ ....).



في ذاكرة أديبة

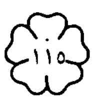
«نازك»

كانت تريد أن تكتب، وتعبر ببلاغة رصينة وإحساس مرهف عمّا يختلج في أعماقها فقد وهبها الله عز وجل عقل فطن وضمير حي وقلم جيّاش بالعاطفة، لكنهم مزقوا أوراقها وكسروا أقلامها بيد أنها لم تُقهر وبرغمهم تبوأت العرش والمنبر.

وهنا تكمن الإرادة.

هذه الرقة المسكونة بالألم. يلهج لسانها بالحكم، ولغة مطلية بالإحساس، معطرة برذاذ سماوي، يجهلها هؤلاء ممن تحكمهم المادة، في طفولتها تأتلف الطبيعة وتسرح في الكون تبحث عن وطن جميل تستريح فيه نفسها المعذبة، تنسج في خيالها عالماً مثالياً مركب بمهارة طفلة شاهقة المطامح.

نشأتها في هذا البيت المتناقض ما بين الجاهلية والدين يحكمها أشخاص مضطربي الفكر، مشوشي البصيرة، مهزوزي



الثقة بالنفس، بينما هي تتصقل بمكوناتها الذاتية وموهبتها الفطرية بتدبير إلهي حينما يكتب للإنسان قدراً.

كتبت أولى كلماتها في كراسة المدرسة سحراً يتضوع في الحروف تلتقط إشارات لا يدركها الآخرون، فهي تسمع دبيب النملة، وهمس الطيور، ونداوة الزهرة وتعرف جوهر الأشياء بحدس مشبع بالرهافة.

في المدرسة تتألق موهبتها وتكتب خواطرها بشكل لافت ومبهر، تختارها المعلمة لتشارك في مسابقة القصة القصيرة على مستوى مدارس الوطن، وتفوز بالمركز الأول عن قصة بحار أوشك أن يغرق في عباب الموج المتلاطم لكن أمله بالله أنقذه من الموت، شكّل لها هذا النصر حافزاً كبيراً لتنمي هذا الفن الأدبي... تقبع في غرفتها تفكر تمرح في خيالاتها البديعة تسرج عوالمها الخاصة بقيمها النورانية لتبدع في مسارها الأدبي.

ميولها المتميزة تدفعها إلى المكتبة فتقرأ باستئناس من يصاحب صديقاً حميماً، في شخصيتها ذلك التعالي الانسيابي المنسجم مع حياءها الفطري، ولهذا بقت متسربلة بخيوطها الشفافة تنسجها أحلامها البكر، وتخطو خطواتها الصامتة دون ضجيج، وفيها توق لاكتشاف الحياة والتعبير عن تجربتها الطريّة بقلم خجول، راسلت الصحف المحليّة وشاركت في زاوية



الهواة بأسماء مستعارة، نشروا لها بحماس وبفضول لمعرفة هذه الشخصية الغامضة التي تختفي وراء قلم مُبدع.

فرحت جداً، تحمل الجريدة إلى أهلها متلهفة لمباركة منهم فإذا بها تُصد بالتجاهل وتحبط بالإهمال وسخرية جافة عبّرت عن عقلية متحجرة قال لها أحدهم:

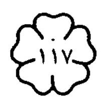
«كلام فارغ وسخيف وأمها تؤنبها: انتبهي لدراستك واتركي عنكِ هذه الترهات!».

يالفرحتها اليتيمة تموت فوق شفتيها ذبيحة، كم تمنت لو كان هناك تشجيع، كم هو قاسٍ على الكاتب أن تكسر عنفوانه وتقتل روعة إحساسه في المهد.

عادت إلى حجرتها تبكي، وتذرف الدمع حسرات وعيناها شاخصتان إلى السماء:

«رحماك ربي، أنت أبي وأمي وأهلي وعشيرتي فأنا وحيدة في هذه الدنيا، غريبة، شريدة، ليس لي انتماء غيرك، ولا أقوى على مواصلة الدرب دون عونك».

وحولت معاناتها إلى أوراق تحترق ظلماً وكمداً، زفرات نفثها القلم المحترق ظلماً، خواطر جيّاشة بالعاطفة، معاناة تحفر داخلها نفقاً إلى السماء حيث اتصالها الروحي بالله، وكلما نجحت خارج أسوار البيت تخنقها قيودهم الجاهلية، فهي محاربة نفسياً يتبعون معها كل فنون التجريح ما بين نقد لاذع أو



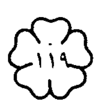
غضب وتهديد، ظنوا أن الكتابة عار، وشهرة المرأة تبرج، وهي تزداد حزناً واختناقاً.

لكن قدرها قد كُتب وأمرها قد نُفذ رغم كل صنوف التسفيه واصلت تكتب للصحف والمجلات في عطل المدرسة الصيفية ألّفت القصص القصيرة لتنشر بعضها وتحتفظ بالبعض الآخر، فهل تستطيع أن تحبس الهواء عن الإنسان؟ فما ظنك والكتابة أكسيرها وهواءها، إن قلمها الأبيّ يأنف أن ينهار أمام عقول متحجرة، ونفوس متغطرسة، فمن يعينها وهي يتيمة الأب محكومة بأخوة كبار يمتهنون النقد وأم تجهل الألف من الباء.

دخلت الجامعة وفي يديها شعلة نور، قد أضاء الله لها الدرب حينما فهمت أن للقلم رسالة، وأن الموهبة لم تولد عبثاً ولابد لها أن تنظم حياتها وفق هدف وثقافة بعيداً عن الأهواء مترفعة عن الأضواء والرياء، هذّبت مسارها بشكل أنضج وتحصنت بثقافة رصينة ووجهت بوصلتها نحو الله سبحانه فهو من ترجو رضاه وتشتاق إلى مباركته. وعملت في الصحافة في وقت مبكر لتكتسب خبرة وكان لها خطوة في مجلة اجتماعية وثقافية أجرت المقابلات والتحقيقات وتغطية الندوات وتكثف نشاطها الثقافي أيضاً حتى في الجامعة وفي صحافتها على وجه الخصوص وفازت بالمركز الأول في المسابقة الثقافية لسنتين متتاليتين، طبع لها أول قصة وهي فتاة مراهقة وترددت كثيراً في نشرها ولأن الطباعة بسيطة ومتواضعة ظنت أنها لن

تلق الاهتمام والانتشار، والقدر كان يفاجئها دوماً بأشخاص حكماء يسخّرون لها الظروف كي تقترب من الضوء، والضوء الذي كانت تعنيه النور الذي سيشع على الآخرين عبر قصصها الهادفة، ولم تكن تنتظر شيئاً، إنها ماهرة في أساليبها المؤثرة، غزّت القلوب بدفء كلماتها ورقة مشاعرها تنضح بها قصصاً من أرض الواقع، وهي سعيدة بهذا المقدار، سعيدة أنها تنتج، سعيدة أنها تبدع، لم تلتفت إلى مديح أو إطراء لم تنتهبها الرغبات في الشهرة والأضواء هدفها أن ترشد بنات جنسها، أن ترأب هذه الصدوع في المجتمع، أن تهزّ عروقه الميتة وتبعث فيه الحياة.

نجحت قصتها الأولى نجاح منقطع النظير وانتشرت في بعض الدول وكتب عنها دراسات نقدية، وهنا كان الانطلاق وبداية الصعود، اتصل بها أكثر من ناشر يعرضون عليها طباعة ونشر أي قصة أو رواية تكتبها، شكرت الله سبحانه فهو من أعانها ووفقها ويسّر أمرها.. وعندما تعبّد لها الطريق شرعت تؤلف القصص والروايات التي أخذت في النجاح والاشتهار حتى أن بيتها الخانق بدأ يضيق عليها أكثر فأكثر ويفتي بأهواء باطلة لتحجيم نشاطها فهي لم تسمع منهم ما يعزز من موقفها رغم أنها كانت للجميع موضع تفاخر، وأخذت الصحافة تقتحم عزلة هذه الأديبة الناشئة التي لم يرها أحد ولم يعرف أي منهم شيئاً عن خصوصيتها وهي تحاول موازنة الأمور بشكل حكيم بحيث تحفظ مظهر التقاليد دون أن تتصادم بها أو تتحداها



درءاً لأي مشاكل متوقعة، فأقلت من ظهورها الإعلامي سواء مقابلات صحافية أو برامج تلفزيون إلا ما ندر، ففي أول لقاء صحافي واجهت عاصفة من الهجوم العنيف وقلبها ينعصر هماً وكمداً فما فعلت لا يستحق تلك الحملة الشرسة من النقد والتهكم، مواجهات مع الأسرة وتعليقات نابية، هم يريدون إخضاعها وإذلالها وأن تركن إلى حياة الدعة والبلادة دون هدف، تزوجت وكان زوجها متفهماً لموهبتها ومستوعباً لشخصيتها، بل أضافت إلى رصيدها المعرفي كثير من الخبرات وتفهم زوجها وضعها كأديبة مشهورة ترتقي هذه المكانة المتألقة فاحترمها ووقف إلى جانبها مؤازراً ومسانداً وهي متمكنة من احتواء رسالتها الإنسانية، متفهمة أن الأدب سلوك إنساني ينطلي على ممارساتنا الحياتية فيصقلها بشكل لائق ومهذب، فكانت زوجة صالحة وأم مثالية حافظت على أسرتها وغرست في أبنائها القيم الإلهية والإنسانية الرفيعة واحتوتهم بحنانها وعاطفتها فكان لقصصها طابعاً جديداً ينضح أمومة وعاطفة صادقة يستمد روافدها من تجاربها الحيّة.

قرأت في التربية وشؤون الطفل والأسرة ودخلت المؤسسات الثقافية والأندية الأدبية عضوة، شاركت في المؤتمرات وقدّمت المحاضرات والندوات الثقافية والاجتماعية واشتهرت بأسلوبها المحافظ وخطها الإيماني الأصيل، لهذا كانت تواجهها تحديات من المنظمات الثقافية التي تنتهج النهج الغربي المنفتح الذي

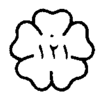


يتعارض مع الدين ويتصادم مع أعراف المجتمعات الشرقية، لهذا كان ثمة تعتيم واضح على اسمها وتجاهل إعلامي مسيّس من بعض الجهات رغم شعبيتها الكبيرة ونجاحها الكبير.

لكنها قانعة بما وصلت إليه قانعة أن لكلمتها رنين في الأذهان، يؤمها الموهوبين الأدباء لاستشارتها، ترصد واقعها بإحساس الطبيبة الأمينة التي تشخّص للمريض الدواء، وهي تصلي كل يوم لله صلاة شكر سبحانه هو من نحت لها أصابع مرهفة لتكتب، هو عز وجل من ألهمها الأفكار، هو سبحانه من سخّر لها الأعوان.

والآن أولادها يتفاخرون بها، الناس، الأصدقاء، المجتمع، يتباهى أن هذه الأديبة اللامعة بينهم...

أما أخوتها المعارضين فقد خضعوا لها في الآخر واعترفوا بمقامها الرفيع وصيتها الكبير.



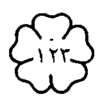
مصممة من طراز نادر
«كريمة»

منذ طفولتها تهوى الرسم والتصميم، تنساب أناملها بخفة وإتقان على الخطوط والدوائر، في المدرسة نقشت على أوراق كتبها أشكالاً هندسية متداخلة ببعضها وتذكر معلمة الجغرافيا كانت تشد أذنها غاضبة:

«حافظي على نظافة كتابك يا كريمة».

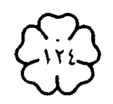
لكن الأفكار تفرّ من بين أصابعها صوراً ومجسمات، وعشقت حصة الرسم وتميزت عن غيرها بإبداع فاق التصوّر، وفي حفلة تنكرية أقامتها المدرسة للطالبات صممت لها ثوباً من القش والقصدير لفتت إليها الأنظار ونالت الجائزة على تصميمها الخلّاق.

دخلت الجامعة ورغبتها في التصميم تلحّ عليها بشدة فكانت ترسم الموديلات لوحدها وفي عزلة عن العالم، درست الفلسفة وكونت لذاتها رؤية خاصة في الحياة شكلت بنيانها الفكري



المتميز فكان محط إبهار، في شخصيتها سحر وجاذبية، لها في اللسان طلاوة وفي المنطق حلاوة، تخرجت وتوظفت معلمة في المدرسة، فكرت أن تمزق أغلال وحدتها وتشهر أفكارها الإبداعية، ففي عيد ميلادها جمعت الأهل والصديقات لتعرض أمامهن نخبة من تصاميمها، اشترت الدُمى وألبستهن الثياب وجهزت سرداب البيت لهذا الغرض، نال العرض استحسانهن وإعجابهن وطلبت أن تصمم لهن ثياب سهرة، لكنها اصطدمت بعوائق كثيرة فهي تحتاج إلى وقت كافٍ للتفرغ إلى هذا العمل، ناهيك عن قصورها المادي وعجزها عن شراء أقمشة ذات جودة عالية بما فيها لوازم الخياطة والخياطين المهرة، ومكان لائق لاستقبال الزبائن، شردت في حيرتها والأفكار تأخذها يميناً وشمالاً وضاقت ذرعاً بأجواء المدرسة وقيودها المتعبة ونظامها الصارم وتتمنى لو تستقيل، لكن ماذا تفعل وهي في أمسّ الحاجة إلى المال ولا تملك مورداً آخراً غير راتبها وفكرة المشروع تلحّ في رأسها وتحرضها على مغامرة غامضة النتائج، هل تقترض من البنك مبلغاً من المال وتخوض التجربة؟!

لفت نظرها وهي تتجول في السوق محلاً معروضاً للإيجار ووضعت يافطة على الواجهة مدوّن عليها رقم الهاتف، حفظت الرقم في هاتفها وستجرب حظها وتنفذ الفكرة، اتصلت بصاحب الرقم وتفاوضت معه على السعر وكان مناسباً، جمعت ما تملك من مدخرات لتجهز المكان وتستقبل زبوناتها ممن استهوين تصاميمها وبحثت عن خياطة مناسبة فلم تعثر على



ضالتها، قدمت على طلب في أحد مكاتب العمالة وانتظرت لفترة قضتها في رسم التصاميم الجديدة وشراء بعضاً من الأقمشة ريثما تأتي الخياطة، في ظرف شهرين جاءت الخياطة وباشرت كريمة مشروعها بعزم ونشاط وأخذت تنحت في الصخر تواصل العمل حتى ساعات الفجر الأولى وزبوناتها قلة وعملها يحتاج إلى إعلان وإشهار خبطة قوية تلفت إليها الأنظار، وهي مضطرة لرفع أسعارها فأثمان الأقمشة باهظة وهي حريصة أن تضع قطعة مميزة تعبر فيها عن ذاتها وتبصم في خطواتها بصمتها الفريدة، لم تيأس رغم الخسارات المتلاحقة، فنشاطها اقتصر على قلة من قريباتها وصديقاتها يرجعن إليها في تصميم ثياب الحفلات، تعثر عملها ونضبت مواردها المالية مرغمة أن تسدد قرض البنك من اقتطاع جزء من راتبها والعائد إليها لا يغطي تكاليف المحل وراتب الخياطة ومصاريف المعيشة لأنها يتيمة الأب تعيش مع أمها المقعدة وهي صغرى أخواتها المتزوجات، فلسفتها الخاصة في الحياة لم تعجب الكثير من الرجال فيفرون منها بحثاً عن زوجة تقليدية مريحة لأدمغتهم.

هذه الفتاة فيها نوع من التمرد الجميل الذي يدفعها في الاتجاه الإيجابي، وأمها تلح قلقة «إلى متى تبقين هكذا يا كريمة، تنازلي قليلاً عن شروطك، اتركي عنكِ هذه السخافات والتفتي إلى حياتك ومستقبلك».



وتقبّلها كريمة بحنان:

«أنا لم أضع شروطاً يا أمي هذه شخصيتي ومكوناتي الطبيعية هم سطحيون يخشون عقليتي المتفتحة».

وتسقط عليها الأم كثير من الملامة:

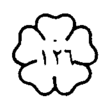
«لأنك تجادلين وتناكفين وهذا يزعج الرجال يا ابنتي»

«يا أمي كل إنسان يأخذ نصيبه في هذه الحياة».

ولتغطية خساراتها اضطرت أن تبيع مجوهراتها لتسدد قروضها المتراكمة، وتحت ضغط الحاجة اضطرت أن تقفل المحل وتؤجل مشروعها، وتركت الخياطة تبحث لها عن مكان آخر، ورأسها عاصف بالأفكار وكأن داخلها كائن عملاق مترع بالتفاؤل والأمل لا يعرف الهزيمة ولا يقبل الانكسار فطالما هي تملك موهبة قديرة وإبداع متدفق ستنمو وستجدد خواطرها فالمبدع كائن مطاطي يتمدد وينكمش في اتجاه الهدف إن كان قريباً أو بعيداً ويغيّر نسيجه تبعاً للظرف الذي يمر به ويتكيف مع أوجه الحياة المختلفة.

فبقيت كريمة مثيرة للإعجاب، ملهمة في إصرارها الصلب، محبوبة بروحها المرحة.

تركت مشروعها الخاسر متشامخة وكأنها تخرج من احتفالية تكريم، عادت إلى بيتها مبتسمة أعدت لنفسها القهوة التركية وجلست أمام طاولة كبيرة خصصتها لرسم التصاميم،



وفي منتصف الليل تتمدد على السرير وتقرأ كتب الفلسفة والمنطق سألها أحدهم ممن غامر في التقدم إليها «ألا تعتقدين أن هناك تناقض بين الفلسفة وتصميم الأزياء».

أجابت بثقة وإيمان «التصميم هو فلسفة في حد ذاته لأنه تعبر عن معنويات المصمم وقيمه، فالثوب لا يعني نسيج مادي نوعه قطن أو حرير بل انعكاس لثقافة وعادات خاصة بكل شعب فهناك الساري الهندي مثلاً والكيمونو الياباني والجينز الأمريكي، لو بحثت في كل زي لوجدت له فلسفة خاصة وخلفية ثقافية.

تململ الشاب وود لو يصم أذنيه درءاً لهذا الاستطراد الممل وحدست أنه من ذلك النوع الذي يثرثر أكثر مما يسمع ونسي أن الله خلق لنا فم واحد وأذنين.

في العطلة الصيفية سافرت إلى عواصم الأزياء والموضة لتطلع على نشاط المصممين ودور الأزياء وآليات العمل التجاري وسر نجاح البعض دون البعض الآخر، دخلت في دورات تدريبية مكثفة وشعرت أن في داخلها فيضان إبداع كان يؤرقها ليالٍ طويلة، تظل حتى شروق الشمس ترسم وتصمم وتدخل المواقع المختصة في هذا الفن وعرفت أن السوق غابة يتنافس فيها الأقوياء في الاستحواذ على الساحة ولهذا ينبغي على المصمم أن يجدد ويبتكر ليتميز برمزية خاصة به، والناس تبحث عن



الاستثناء المدهش، قال لها أحد المصممين البارزين ممن كون ثروة ضخمة في هذا المجال:

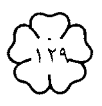
«المصمم الناجح ينبغي أن يفهم نفسية الزبون ويتغلغل إلى باطنه بروح الفنان لا التاجر وهذا ما يميز المبدع الحقيقي عن الدخيل على هذا الفن لأنه يجمع قصاصات من كل مصمم ويصنع في النهاية ثوباً مرقعاً لا روح فيه ولا حياة، لهذا امنحي الزبونة الثقة في ذاتها كونها جميلة وستبرزين لها ملامح هذا الجمال من خلال موديل مناسب ومتوافق مع ذاتها، تحتاج الزبونة إلى الإحساس بالاطمئنان للمصممة حتى تعبر بأريحية عن المشاكل الجمالية في جسدها دون خجل أو مداراة، إذ نرى بعض المصممين قساة جداً يترك في نفس الزبونة انطباعاً سلبياً عن ذاتها كونها غير لائقة لأي تصميم وإن اكتنازها عاهة فتصاب بالإحباط واليأس وترفض ذاتها وتظل تداري سمنتها خجلاً رغم أنها مقبولة المظهر، عليكِ هنا أن تصالحيها مع ذاتها لتفهم أن لها نموذج خاص من التصميم يبرز جمالها وقوامها بشكل أفضل، ولابد أن يكون المصمم مثقف، مطلع على عادات الشعوب، متمرس في التعامل الإنساني، يمتلك مهارة الإقناع، ملم بعلوم النفس فهو من يجعل قطعة القماش تنطق إبهاراً على هذه المرأة دون غيرها لأنها منسجمة مع طبيعتها تماماً، وأنصحك على وجه الخصوص أن تستوعبي ذائقة الناس في بيئتك، لا تكوني نسخة مكررة عن غيرك من المصممين،



المرأة في بلادك افهميها جيداً ووجهي رؤيتها الجمالية لتعرف كيف تتجمل، فسري رغبتها في كل قطعة ثوب، هناك امرأة موسوسة، تشك في جمالها تحتاج إلى قطعة تسد هذه الثغرة وتشعرها بالامتلاء النفسي وهناك القنوعة المنبسطة ترتاح إلى الثوب الخالي من التعقيد وتصادفك المتحفظة الخجولة ترغب في تصميم هادئ تمر على الناس كنسمة عابرة لا تترك في نفوسهم إلا الانتعاش، وليكن رأيك مقنعاً لهن، قد تسرف بعض النساء في الأزياء الاستعراضية المستهجنة فتخسر جمالها وتفقد احترام الناس.

عادت كريمة إلى بلدها وفي ذهنها مخزون من الثقافة والفنون واطلعت على وضع السوق والجوانب الإدارية المتعلقة في هذا المجال، التقت بأشهر المصممين في بلدها حيث عرضت تصاميمها على صاحبة أرقى أتيليه في المجتمع وأعجبت المرأة بنشاط كريمة فعرضت عليها العمل ومشاركتها في تطوير الأزياء، وكانت فرصة ذهبية أطلقت مكامن الإبداع من منابتها فعرفتها سيدات الأعمال وزوجات الوزراء والوجهاء نالت إعجابهن وفسرت رغباتهن وحافظت على بصمتها والذوق الاجتماعي واللمسة الأنثوية الدافئة فعرفت أنها المصممة التي تجنح بالمرأة إلى الحقول والروابي الخضراء فراشة زاهية الألوان أنثى ناعمة تنضح رقة وعذوبة.

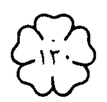
جمعت كريمة ثروة لا بأس بها وكونت لها اسماً لامعاً



فانفصلت عن شريكتها لتباشر في تأسيس مشروع خاص بها قدمت استقالتها من المدرسة وباشرت في متابعة الإجراءات في غرفة التجارة لامتلاك الرخصة القانونية، شعرت الآن أنها واقفة على أرض صلبة وملمة بكل تفاصيل العمل التجاري ومتمكنة من إدارة مشروع ناجح، وقدمت على طلب عمالة من الخارج وفق شروطها الخاصة وهم بحدود ستة خياطين واشترت الأقمشة وماكينات الخياطة وكل مستلزمات المحل.

ودعت زوجة أحد الوزراء ممن لهن نشاط اجتماعي ووجاهة بين الناس لتفتتح الأتيليه في أرقى موقع تجاري في السوق أثثته باللون الأبيض والفضي وطعمته بإكسسوارات ناعمة، فبدا أنيقاً، راقياً، جذاباً وأطلقت عليه اسم «أتيليه الفراشة البيضاء»، وباشرت نشاطها بعد أن تكاملت جميع عناصر المشروع وأظهرت قدرة فائقة على الإدارة والسيطرة على زمام الأمور،وهي الآن قادرة على المقاومة، قادرة على المنافسة، قادرة على الإبداع بشخصية أكثر نضجاً وأكثر قوة.

وقررت أن تقدم عرضاً خاصاً بها ولهذا عليها أن تجهز الدعوات لزبائنها وإعلانات تكلفها المبالغ الطائلة، درست الخطة جيداً بعد أن استشارت معاونتها في الأتيليه «نحتاج إلى عارضات من نوع خاص وقاعة في فندق» أطلقت كريمة لفكرها العنان وتذكرت المصمم العالمي حينما قدم لها نصيحة ذهبية «أن تحافظي على تقاليد مجتمعك ورمزية إبداعك والمصداقية

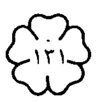


في عملك، ليس المهم أن نبدأ فقط بل المهم أن نستمر للأبد فكثير من المصممين كانوا أشبه ببالونات منتفخة كبرت ثم انفقأت وتبددت في الهواء وانمحى ذكرها ونُسي اسمها لأنها بدأت مزيفة وانتهجت نهج إباحي صادم للمجتمع».

اتصلت ببعض صديقاتها وقريباتها وعرضت عليهن اقتراحها وهو أن تستعين ببناتهن اليافعات لعرض تصاميمها بشكل واقعي ومقبول اجتماعياً، فجمعت عشرين فتاة من طالبات الجامعة ممن لهن أطوال وأوزان معقولة ومناسبة واتفقت مع أختها الكبرى على عرض الأزياء في صالة بيتها الكبيرة وبعثتها إلى من تعرفهن من زبوناتها الأنيقات والمتابعات لتصاميمها.

وشهدت القاعة عرضاً رائعاً بشهادة الجميع وبحضور مكثف وببساطة مريحة عبرت عن إيمانها بموهبتها وحرصها على احترام عرف المجتمع ودينها، بعيداً عن الصحافة ومخالطة الرجال ومحرضات الفتنة والغواية، بعد تصفيق حار ضجت به القاعة أخذت كريمة الميكرفون لتتحدث:

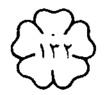
«أشكر الله أن وفقني في هذا المجال الذي يعبر عن روح المرأة وإحساسها الشفاف وأشكر حضوركن الكريم لأنكن وقفتن إلى جانبي تدعمن موقفي في رسالتي هذه وأعتبرها رسالة لأنها مسؤولية تقع على عاتقي كي أحافظ على هوية المرأة في مجتمعي أصنع الجمال المنسجم مع الطبيعة الشرقية المحافظة



فلا تذهب المرأة بعيداً بحثاً عن أزياء مرفوضة شرعاً وأخلاقاً تميل بها شرقاً وغرباً كريشة في مهب الريح، أنا هنا أعود بالأنثى إلى الفطرة السوية، إلى الذوق السليم، وأعلن في تصاميمي الأصالة، العراقة، الدين، الهوية، العرف، القوة. إننا نملك كل أدوات الإبداع في هذا الفن وفي غيره لكن ينقصنا شيء واحد فقط وهو الثقة بأنفسنا وقدراتنا وإمكانياتنا».

فشكراً لإصغائكم النبيل وتجاوبكم الكريم.

صفق لها الجمهور إعجاباً وحباً لأنها مصممة من طراز نادر.



ذات الشعر الأشيب

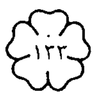
سمرة»

(بيت كالصحراء قاحل، ناضب، تنبت فيه اقحوانة مفعمة بالأسرار متورطة بنسوة تجمدت في عروقهن دماء الحياة حينما توهمن أن الفناء في أول شعرة بيضاء وألقين ظلالهن القاتمة على «سمرة» فوسمنها بميسم الكبر والكهولة لكنها انتفضت، وتمرد العربيد داخلها ليكشف عن صبية مترعة بالنشاط والحيوية).

تخرجت (سمرة) من الجامعة وقدمت على وظيفة (معلّمة) في مدرسة بنات، كل من حولها من فتيات الأسرة تزوجن وأنجبن وبقيت لوحدها تترمض على جمر الوحدة والحرمان، ونظرات الإشفاق تندلع كنيران حارقة تلسع فؤادها المكروب.

«مسكينة قد فاتها القطار!».

أخواتها الصغيرات يتنازعنها لرعاية أطفالهن في وقت انشغالهن مبررات «أنتِ فارغة لا زوج ولا ولد!».



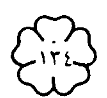
وأمها تستبيح راتبها في إعمار البيت وشراء مقتنيات الأسرة قائلة بقسوة:

«ولمن تدخرين الراتب وأنتِ وحيدة!».

تقف (سمرة) أمام هذا الإعصار المستبد منطفئة الأمل، يائسة الأحلام، فقد خط الشيب خطوطه البائسة على شعرها الفاحم، دميمة عافتها العيون الباحثة عن عروس، وهجرتها النفوس التواقة إلى ولود، كبرت وجفت مواردها وانكسرت أنوثتها على مشارف الأربعين، اغتالت داخلها كل حلم جميل ونبضة شوق لرجل، وهي كالأرض البور مجدبة جافة يبست أعماقها ونضبت مناهلها.

وهمها يحفر داخلها عقدة نقص تنهش فيها غيرة فتاكة تثور بانفعال هستيري متى ما مس أحد وتر الزواج أو الحمل، ويأخذ جسدها في السمنة والترهل ويشتد إحساسها بالجزع واليأس، تنكب في وحدتها المضنية على مشاهدة الأفلام الرومانسية وقراءة الروايات العاطفية، تتضور عاطفة ساحقة وتظن أنها بهذه المسكنات تقهر جوعها القاسي.

ويجن عليها ليل الغربة وكل خلية في دمها تصرخ مستغيثة من ظلم أم جحود وأخوات بليدات، مجروحة أينما اتجهت، مهانة كيفما فعلت، وكأن الزواج جواز مرور إلى دنيا السعادة وإلا فالعانس كما يصفونها منبوذة في العدم.



جردتها الأم من كل عوامل القوة وأذعنت في ذبح كبرياءها مستهينة بقدراتها الذاتية وعنفوانها الأنثوي قائلة باستنكار:

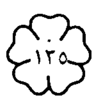
«مهما نجحت الفتاة فلا قيمة لها دون زوج».

وتنكفئ (سمرة) بحزنها وأساها منزوعة القيمة والقدر تأخذها حيرة كئيبة «ماذا تفعل لتخرج من هذه البيئة الموبوءة التي ترهن قيمة الأنثى بحالة زواجية وإن خالفها القدر حكم عليها بالإعدام، تتمنى لو تتزوج لكن كيف السبيل إلى ذلك والأبواب مؤصدة، يئست من أمرها واستسلمت لمصيرها فقد بلغت من العمر ما جعل الرجال يتورعون عنها ويغادرونها إلى أخريات أكثر وفرة وخصوبة.

لجأت إلى الخاطبة تغدق عليها المال بسخاء كي تشق لها بصيص نور وسط ذلك الظلام الدامس، بيد أن الخاطبة تستدرجها في طمع حتى أدركت الفخ، وها هي سنين الوحدة تأكل مخزونها وترسم أمائر البؤس والشقاء على محيّاها.

فكرت في أمرها طويلاً حينما استبد بها الجزع وبحثت عن مخرج لأزمتها الطاحنة، وكان قرارها أن تترك جو المدرسة الخانق وتلتحق في وظيفة إدارية تبعث في أعماقها شيئاً من الحيوية وكان الاختيار مركز بحثي في الوزارة باشرت في الإجراءات دون إبطاء لتستأنف العمل في مطلع السنة الجديدة.

كان كل شيء حولها ينضح بالنشاط، العمل البحثي خلق



داخلها إحساساً بالتغيير وكسر الروتين، تخرج في بعض الأيام إلى الجامعة لتطبيق نماذج استبيان على الطلبة والمدرسين والإداريين، كان عالمها هنا مختلف عن المدرسة وأجوائها الرتيبة، ورئيس المركز دفعها لتتمرن عبر دورات بحثية في مركز التدريب مثل دورة النجاح الوظيفي، دورة في التفكير الإيجابي، دورة في كتابة البحث العلمي.. الخ.

آفاق جديدة تأخذها إلى عالم أرحب، شحذ حوافزها بجموح وتوثب وإذا بها شعلة حماس، جمرة نشاط يكمن داخلها كل عناصر القوة لكن البيئة الملوثة اضطهدتها ورمتها بالتسفيه والسخرية، وقمعت فيها كل بوادر الطموح والرقي الوظيفي، أحبت عملها وتفانت فيه وأبدعت في إعداد برامج جديدة للمركز وأجرت بعض التعديلات، أعجب رئيس المركز بأدائها فرشحها لرئاسة القسم وبعثت هذه الترقية في حياتها شيئاً من التحدي فسعت إلى تغيير نمط عيشها وتبديل هيئتها واستظهار جمالها الكامن، ذهبت إلى الصالون وصبغت شعرها الأشيب وقصت شعرها بنموذج طفولي يبرز مواطن الجاذبية في ملامحها، ثم التحقت في نادي رياضي ومارست كل برامج التخسيس وفنون التجميل لاستعادة الحيوية والنضارة إلى بشرتها، فانصقل جسدها بشكل جديد، إنها (سمرة) جديدة بهيئة واثقة وبروحية متفتحة وكان الحصاد إحساسها بالتناغم والتصالح المحبب مع النفس، فإذا بها تشع حب وإيمان وثقة



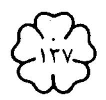
وتفاؤل، اختفت نظرات الإشفاق المذلة لشخصها وطرأت على من حولها رغبة جارفة في سبر أغوارها واستكشاف طويتها لكنها معرضة في كبرياء، متعالية في إباء، فكرت في ترميم حجرتها الخاصة وشراء أثاث جديد وستائر زاهية الألوان وأمها تتحفز إلى سؤالها عن هذا السر الدفين والانقلاب المفاجئ في حياتها و(سمرة) تجنح إلى استقلاليتها والتوحد بحياتها وهي سعيدة بهذا النهج، تعرف الآن كيف تفر من شبح الوحدة حينما يعصف بذهنها متخذة الجانب الإيجابي منفذاً لمعاناتها، وتمزق أغلال الكآبة عن روحها المختنقة سنين طويلة لتنطلق في دربها الجديد بتفاؤل وأمل.

ذات صباح جاءت بوجهها الناضح حيوية تشمخ باستعلائها على ضعفها، دعاها رئيس المركز أن تحضر إليه في مكتبه لأمر هام فظنت أنها عادته كل صباح يطلع على تقريرها المفصّل عن اجتماع اللجنة ويتابع نتائج الاستبيان الأخير الذي تم تطبيقه على طلبة المدارس الثانوية والذي أخذ منها وقتاً طويلاً.

بادرها بالسؤال عن نشاطها وهي تستجيب ببشاشة وانفتاح حتى تلكأ وهو ينحى بحديثه ناحية مختلفة تماماً عن طبيعة العمل، أطرقت وكان هاجسها صائباً فيما لهج به قلبها.

«لم أرَ في حياتي إنسانة ديناميكية وحيوية مثلك يا سمرة».

غاصت في مقعدها حرجاً.



وتابع:

«أثرتِ إعجابي بشدة، فقد لمحتك ذات مرة وأنتِ تعملين بجميع حواسك».

حدجته بنظرة دهشة وقلبها ينشرح من شدة السعادة.

ومضى يعبّر:

«تعرفين أني أرمل، توفت زوجتي قبل خمس سنوات ولي أبناء متزوجون وأعيش وحيداً أحتاج إلى إنسانة تقربني في الفكر والروح، حاضرة البديهة، نشيطة، تدخل البهجة إلى حياتي، وأنا لا أفكر بالإنجاب أبداً فلي أحفاد كثر يملئون عليّ البيت في أيام الأجازات».

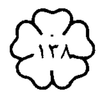
كادت أن تقفز من فرط السعادة وانعقد لسانها من شدة الحرج.

«هل أضمن الموافقة».

هزّت رأسها مستجيبة.

وتزوجت سمرة من مديرها وانتقلت لتعيش في بيته الفخم وكان خبر زواجها خبطة هزت الجميع وأذهلت قريباتها بل صرن يغمزن إليها بشيء من الحسد والغيظ.

هل حقاً أن العانس ليس لها محل في دنيا السعادة؟



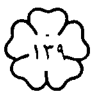
استلقت على سريرها بعد أن خرج الزوّار من بيتها تفكر وابتسامة مشرقة تشق عتمة الليل وزوجها يرقد في سباته:

«إن هذا الإحساس السوداوي ينبع من ذات المرأة وهي تعيش جواً غائماً في روحها فتعكس الصورة على الآخرين إنهم استضعفوها عندما اعتقدت في ذاتها أنها ضعيفة، واحترموها حينما احترمت ذاتها ومزقت شرنقة الكآبة البغيضة».

وهكذا قررت (سمرة) أن تستعيض عن نظاراتها السوداء بأخرى وردية لتجد السعادة تنبع من داخلها ومن طريقة تفكيرها فقد أطلقوا عليها عانس عندما ظنت نفسها هكذا، وعرفوها ناجحة عندما أظهرت قدراتها..

بعد سنوات قليلة تقلدت منصب إدارة المركز حينما تقاعد زوجها.. وها هي الآن مديرة يُشار لها بالبنان والفخر طوّرت المركز بشكل مذهل وساعدت في تنمية النشاط البحثي في الوزارة.

بقلم خولة القزويني
www.khawlaalqazwini.com



وهبتك قلبي

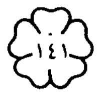
«روان»

(أن تفارق من تحبه باختيارك قرار ينتزع روحك من جسدك ويقمع قلبك عن النبض، ويحبس أنفاسك عن الحياة، لكنك تبرر أنك ما اقتلعت قلبك إلا لتهبه للآخر تضحية منك وإيثار).

وهكذا كان قرار (روان) حينما انتهت مع من تحبه إلى طريق محكوم بشقاء أسرة، اختارت الهجران...

فكيف بدأت قصتها وأين مكامن النجاح فيها؟

اتصلت (روان) في صبيحة أول أيام سبتمبر بمدير تحرير مجلة «الثقافة» فقد بعثت قصائدها لمرات عدة ولم تُنشر مستعلمة بحماس عن سبب تأخر نشرها، فلربما كانت غير لائقة أو دون المستوى، بقيت لأشهر طويلة تنتظر أحرّ من الجمر وتخرج إلى المكتبة في مطلع كل أسبوع من إصدارها تتصفح الأوراق وعيناها تلتهمان السطور بلهفة لعلّها تقرأ ذلك الاسم «روان عبد الحميد» ويأتيها صوته الوقور جاداً «ربما ضاعت في



البريد، لم أستلم أية رسالة بهذا الاسم، لهذا تفضلي لعرضها علينا في مبنى المجلة».

اطمأنت فطنتها بنفسها حسن، كفاءة واقتدار، عادت إلى أدراج مكتبها لتجمع النسخ وتطير بها إلى مدير التحرير، وطوال الطريق كانت تحدث نفسها بحلمها البكر أن تطبع ديوانها الأول وتجتاز ذلك المعبر الخانق نحو شاطئ الخلاص فأهلها متزمتون يبخسون حق الفتاة في أن تكتب شعراً، محاصرة بطوق من العقول المسطحة وهي الياسمينة الأزهرية يتضوع لسانها عبيراً وشعراً، تتجافى عيناها عن النوم هماً فسياط الغربة لا ترحم واعتقال الإبداع أمر مرير.

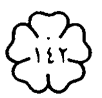
أركنت سيارتها أمام المبنى وهبت كنسمة ربيعية أمام قاطع زجاجي يجلس خلفه العاملون في المجلة.. جاءته تمشي على استحياء وخفر، انحنى لها احتراماً وإجلالاً:

«تفضلي» أشار إلى المقعد الخالي أمامه.

وضعت (روان) أوراقها بارتباك فقد غلبتها مهابته.

«منذ متى تكتبين الشعر؟»

يسألها وهو يتصفح الأوراق، كأنه يستقرأها كلمات، شردت في تفكيرها مسترجعة الذاكرة البعيدة من أغوارها السحيقة ثم استطردت:



«منذ بدء التكوين، منذ صرخة الميلاد وأنا مغتربة، تسكن أعماقي أنثى مضطهدة فإذا بصوتها المذبوح يئن شعراً»

«اقرئي لي هذه من فضلك» اختار إحدى قصائدها.

تضرجت وجنتيها بحمرة الخجل وانكمش صوتها «لست مستعدة الآن».

حاصرها:

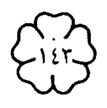
«ربما لأني أريد اكتشاف صدق مشاعرك، فإن إلقاءك يلوّن هذه التعابير ويلحن الكلمات ويبرز ملامح إحساسك».

اكتنفتها رغبة في تحدي ترددها وحسم موقفها فلتثبت ذاتها وتبرهن أن شعرها إيمان وليس فورة انفعالية وحسب.

استعدلت في جلستها وشدت كتفيها وتنحنحت لتصرف الحشرجة عن حبال صوتها، وبعد وقفة قصيرة قرأت القصيدة فإذا بها تنفصم عن حيزها المادي وتغيب في الفراغ ومحيّاها يتناغم مع إيقاعات القصيدة، وتغدو مقلتيها جمرتا حزن تشهقان الألم مع كل رفة جفن، وبعد فراغها أطرقت صامتة تسترد روحها الغائبة إلى حالة الوعي.

«لِما كل هذا الحزن؟» سألها متعاطفاً.

شَدت نفساً عميقاً وهي تتلفت حولها في دهشة كأنها تائهة ضلت الطريق ثم حدجته بنظرة عميقة مستدركة:



«لأول مرة أُسأل بهذا العمق ويقتحم إنسان غريب حصوني».

ثم وجهت له سؤالاً ضائعاً يتضمن كثيراً من المعاني:

«من أنت؟ وماذا تريد مني؟».

اختصر المسافة وبثقة حدد موقفه:

«الأرواح حينما تتلاحم لا تستأذن، إنها منجذبة لبعضها بخواص كيميائية لا تحتكم بعقل ولا تخضع لمنطق».

تسمّرت كالمأخوذة، ثم انبرت تقول:

«إنها منطقة محظورة وطريق وعر فيه مجازفة».

تهيأت لتنصرف.

استوقفها:

«تمهلي أرجوكِ»

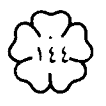
وعند الباب التفتت نحوه تباغته ببيت شعر عرف مغزاه:

«وقصائدي لا تنساها ففيها حياتي وفيها مماتي».

تجهم متأسفاً على رحيلها، ثم عبر بصوت مخنوق:

«أعدكِ أنني سأصون حياتك عهداً حتى الموت».

هربت من عينيه، من حصاره، من اقتحامه المتطفل وترك غيابها وحشة في قلبه، فأخذ يدور حول نفسه في المكتب، جاءته السكرتيرة محملة بالأوراق تنتظر إمضائه، ركنها جانباً، اعترضت:



«أستاذ إنها ضرورية»

«دعيها الآن فأنا منهمك في التفكير».

تشاغله (روان) فتنعطف بذاكرته نحو زوجته (لُبنى) وشخص الفارق الكبير بين صنفين من النساء تأخذانه في اتجاهين متضادين، زوجته الطاردة لكيانه الإنساني من الاعتبار، وروان الجاذبة بسحرها الأخاذ ورقتها الباطشة، في لحظات قصار استفاقت من أعماقه مشاعر كامنة اعتقلتها سنين الغربة والوحدة.

والتقيا على مرفأ حب يهيمان لوحدهما في كوكب علوي يتناجيان في انعتاق روحي غيبهما عن العالم وكونا لقلبيهما عشاً تنمو فيه كل يوم زنابق وسنابل وياسمين، شعرت روان بتبدد أشباح الظلام عن قلبها الدامس فقد أضاءت قناديل المحبة نور الأمل في حياتها، عملت محررة في المجلة الثقافية وهيمن (مراد) على حياتها سيداً آمراً ناهياً، وضرب حولها حصناً من الولاية الذكورية لتبقى محميّة تحت وصايته، غمرها بحنانه وعطفه وحقق حلمها الذي راودها طيفاً في لياليها، طبع ديوانها الأول «همس الظباء» وجهز لها حملة إعلامية مكثفة لتسويقه، لمع اسمها شاعرة عبقرية طورت لغة الشعر وطعمته بنكهة روحانية تدفع القارئ أن ينسلخ عن تكوينه الجسدي ويرفل في العالم العلوي محض روح، ودفق المشاعر يمور بين

قلبيهما، قلبها الباذخ حباً يطوي عذاباته بين جناحيه حناناً ويربت على قدره مطمئناً أنها ملكه، كيانه، حبه الأوحد، عهد لا تنفصم لحمته ولا تبدد الأيام قدسيته، وهو طوع بنانها، يستميت لإرضائها، لاستغاثتها، فعوضها عن ليالي الحرمان والوحدة القاسية.

قالت له ذات أمسية ماطرة جمعتهما شتاءً وكل ذرة في كيانها خاضعة «فراقنا يعني قطع شريان حياتي، نهايتي، فقد عرفت معك معنى الأمان والسكون النفسي والطمأنة المفقودة في حياتي».

وقال لها مناجياً:

«وليتك توافقين على زواجنا بسرعة لأوثق هذا الحب برباط مقدس، فلا يهدأ لي بال أو يستقر لي حال ونحن هكذا مفترقان دون وصال شرعي».

أجفلت خائفة:

«لا .. ليس الآن، تعرف أن أهلي يرفضون ارتباطي برجل متزوج، اترك للزمن الفرص والمخارج لأزمتنا فقد اختبرت أمي ووجدتها معترضة بشدة، وأنا في حيرة من أمري، أرفض كل من يتقدم لي خاطباً متذرعة بدراستي وطموحي، فقلبي يهواك ولا يرغب بسواك».

وتشتد اللوعة، ويفتك بهما الحرمان، منصهران بهذا الحب الجارف ينهش روحيهما كالنار في الهشيم، وهما يتعففان عن المنكر، يتورعان عن الفاحشة مترهان بعاطفة عذرية جامحة.

ويأتيها هاتف صاعق يهزها من الأعماق:

«أنا لُبنى زوجة مراد، أرغب في التحدث إليك بشأن خاص وفي منتهى السريّة».

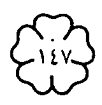
تسمّرت (روان) مذهولة، حاولت أن تكبح انفعالاتها، تلعثمت في حلقها الكلمات، انشلت أطرافها وأيقظها صوت المرأة يأتيها مرتعشاً:

«أرجوكِ إنها مسألة حياة أو موت».

والتقتا الزوجة والحبيبة في مقهى هادئ بعيداً عن ضجيج المارة.

ولأول مرة تقفان وجهاً لوجه تبادلتا نظر الاستكشاف الغريزي في الأنثى حينما تبحث في غريمتها عن مساحة مغمورة لم تعلن عن نفسها بعد وتركت لرجلها حرية الغوص المحبب..

كانت زوجته لوحة بائسة، في تقاطيعها حزن معتق ومرارة دفينة أشفقت عليها (روان) وانكمشت في مكانها خجلاً تحاول أن تقمع حبها العربيد قبل أن ينفلت من قيده فيبتلع ما تبقى فيها من وعي وحضور.



نكست رأسها بذل، فهي متهمة في عرف الزوجية المخدوعة.

«أنا رهن أمرك»

واستعبرت عينا (لُبنى) فإذا ببوحها حزن وكمد:

«ارحميني فأنا يتيمة الأبوين وليس لي في الدنيا غير مراد، لقد تغير في معاملته لي، لم أعد ألقاه أبداً، إنه حاضر الجسد لكنه غائب الروح، وانفصلنا في الأيام الأخيرة عن بعضنا كل منا ينام في غرفة خاصة، بدا متعكر المزاج، عصبياً، متذمراً، قاسياً في نقده، جارحاً في اتهاماته».

مسحت طرفها وبدت متلاشية في انكسارها المهين، تتابع غصتها سهاماً سامة ترشقها في قلب (روان) قصداً وإيلاماً.

رفعت روان يدها معترضة:

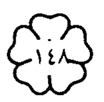
«أرجوكِ كفى... لا تكملي».

تجلدت وهي تصدر حكمها الذاتي إعداماً لقلبها البكر

«والمطلوب أن أهجره».

«أرجوكِ فأنا أم أولاده، أحتاجه أكثر منكِ، حبك دمر بيتنا، فك أواصرنا، حلّ لحمتنا، أنتِ شابة فتية والمستقبل زاخر بالفرص فلِمَا تقحمين نفسك داخل أسرة متكاتفة وتسببي لنا التعاسة والشقاء».

«لا .. لن أكون سبباً في شقائكم وأعدكِ أنني سأختفي من



حياته، سأقتلع قلبي، سأدفن حبي في مقبرة النسيان، ثم رفعت روان عينيها إلى لُبنى متسائلة:

«وكيف عرفتِ قصتنا؟».

«لقد صارحني برغبته في الزواج منكِ قبل فترة»

وقفت روان كالملدوغة وانصرفت دون أن تودع لُبنى بسلام وألقت نفسها في سيارتها تجتاحها عاصفة من الدموع، ممزقة، محطمة، قد هشمت الحقيقة كل معاقل أحلامها الصامدة طوال هذه السنين، خمس سنوات من عمرها تبددت كالسراب، تلاشت كدخان، وذلك الأمل الموعود قد وأد في المهد وهو حياً.

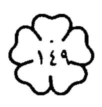
ابكي يا روان، ابكي فلطالما كانت قصائدك بكائيات تُنعي أحلامك المنحورة على مذبح الخيبات.

ستقرر قرارها القاتل وستخنق قلبها حتى يلفظ أنفاسه، لن تعرض عليه الأسباب، ستتركه في حيرته، موسوساً، متشككاً فيظن بها السوء ويكرهها، انهضي يا إرادة من سباتك واحزمي أمرك قبل فوات الأوان، إنه الاقتدار الملهم تصنعه قريحة المبدعين فيختزلون تجارهم المأسوية قصائد وروايات.

المحاولة الأولى أن تقدم استقالتها من المجلة وكان التصميم في محله، مشاعر تتصنع قسوة، مفتضح تكلفها.

«مللت الانتظار ضاع العمر سدى، وتبدد شبابي في الوهم».

تهتز جوارحه استياءاً:



«روان.. ما بكِ انقلبتِ بهذا الشكل؟»

وتفتعل البرود:

«فترت عواطفي».

انهار على مقعده:

«لستِ بروان، لا أصدق ما أسمع».

فرَّت من عينيه وقبل أن يقفز قلبها من جوفها المتعب فيفضح حقيقتها، انطوت على هم وكمد، غيرت أرقام هواتفها وكابدت الذكريات معه على جمر الألم، سقطت طريحة الفراش، ذابلة العود، مصفرة الوجه.. متهالكة على أثر لصوته ينعش روحها الميتة والطبيب لا يجد لعلتها سبب عضوي، إنما هي النفس الذبيحة قربان وفداء لسعادة أسرة.. هكذا ينتظر العرف منها، ويحكم قانون البشر (فأنتِ دخيلة، خائنة، مجرمة)، أمها، أبيها، أخوتها القساة قد ذوب قلوبهم أنينها المنخور في العظم كالداء يتضرعون إلى الله كي تسترد عافيتها فغدت شبح هزيل إلا من عينين واسعتين تضيئان الأمل في ليل الآخرين وفتيلها دمها المحروق ودموعها الساكبة، وتقرر السفر إلى بيت الله معتمرة، لتتوحد مع ربها في مناجاة عميقة وابتهال ليلهمها الصبر، ليشد على يديها المتراخيتين عن التصميم لتنطلق في قرارها دون رجعة، تقاوم حنينها، وتعصف بها الأشواق كلما لامس طيفه ذاكرتها الخابية فينتفض القلب وتتجدد الذكرى

فتغدو إلى التلفون لتهاتفه، لتعلن عن توبتها عن الهجر، لكنها تنطفيء كلما تذكرت توسلات زوجته ورجاءها الذليل، فترجع مقهورة، تخذلها الحقيقة ويحبطها الواقع.

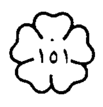
ألقت نفسها في بحر الشعر تغوص فيه غرقاً، لتنسى، تصطلي صفحاتها البيضاء بنيران نكبتها، مشاهد مصورة لمعاناتها فراق، لقاء، شوق، حنين، عتاب، تختزل مشاعرها الفوّارة قصائد مطرزة بالوفاء والعرفان لإنسان صدق في وعده، وأوفى عهده، ويسيل مدادها المحزون مع فورة الشوق الباطشة وكأنه مخزن يحترق مع طلة قصائدها.

كم أنتِ قاسية يا روان، ألم تفكري بمراد، وما حل به من عذاب، لابد من الوجع حينما نبتر عضواً طالما كان فيه إنقاذ لجسد كامل من التهلكة، وهي قد بترت قلبها لتنقذ أسرة.

صادفته ذات صباح يتبعها في سيارته وهاج بها الحنين فانعطفت ناحية مقهى مشيرة إليه أن ينزل وباندفاع هستيري ترك سيارته وسط الزحام بإهمال لا واعي وانطلق مسعوراً بشوقه يسابق الثواني واللحظات قبل أن تفر الأمنية من يديه وجلسا على المائدة، كانت (روان) هادئة قد سكن حزنها سكون الجمرة تحت الرماد.

بادرته:

«أرجو أن تكف عن ملاحقتي لأني مخطوبة الآن وأعتقد أن



قـراري كـان صـائبـاً، فـإلى مـتى أنتظـر وأهلي يرفـضـون هذه الزيجة».

استاء إذ هوت بآماله إلى القاع

«خـذلتـيني يا روان، فـأين وعـودك وعـهـودك أذهبت أدراج الرياح؟!»

تمالكت نفسها وبررت:

«لقد وهبتك قلبي لتعش سعيداً في بيتك هانئاً بين أسرتك، لا أرضى أن أبني سعادتي على تعاسة أحد».

رحلت عنه بعد أن صفعته بقسوة، صفعة محبة فيها حياة إذ استشرفت المستقبل ببصيرة واعية وتداركت الموقف قبل أن يحل الدمار فإن له زوجه متهالكة عليه قد يجن جنونها فإذا بغيرتها إعـصـار.. أيقظتـه من الحلم الجـمـيل والوهم العـذب حـينمـا يأخـذنا الحب إلى فـردوس الخـيـال ونجـحت (روان) شـاعـرة صاغت تجربتها قصائد شعر فطبعت ديوانها الثاني «وهبتك قلبي» ونجحت

بقلم خولة القزويني
www.khawlaalqazwini.com



الحرمان من الحب

«صفية»

(عندما تعيش امرأة ملتهبة العاطفة، متوقدة الإحساس، متوهجة المشاعر حياة باردة وبيتاً كالصقيع وزواجاً خاوياً يفتقد إلى دفء الحب وحرارة الانسجام تهوى داخلها كل معاقل الصمود والأمل، فتنسج حولها شرنقة الكآبة أمناً حتى ينتفض داخلها مارد جامح يعلن الرغبة في الحياة).

اقتربت (صفية) من زوجها تحمل صينية الشاي مرتدية ثوباً أزهرياً زاهياً، تمايلت بقامتها الفارعة مستعرضة الثوب:

«ما رأيك حبيبي؟»

ارتشف (محمد) رشفة من الشاي ساهماً.

تعيد عليه السؤال وهي تميل ناحيته بدلال:

«ألا ترى ما يبهرك؟»

اختلجت عيناه بغتة، فكان رده مقتضباً.

«نعم»

«ما رأيك في الثوب؟»

قال بتكلف:

«لا بأس به»

لفت بقامتها الرشيقة مذعنة في إثارة مشاعره.

جاءها رده صاعقاً:

«انتبهي وإلا سقطت على الأرض!»

بيد أنها سقطت في الإحباط والخيبة، هكذا يخمد جذوة حسها المرهف ويقمع رغباتها الفتية.

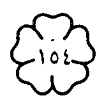
(دعيني الآن أتابع أخبار البورصة).

وصفعة ردت أحلامها خاسئة.

تناهى إلى سمعها بكاء طفلتها الصغيرة (سحر) هبت إليها مسرعة جثت قربها تهدهدها في حنان:

«حبيبتي ما بكِ»

اعتنقتها الصغيرة وشعرت بفيض أمومتها ينهمر كسيل المطر على خديها فرقدت إلى جانبها تشدها إلى صدرها وتفكر في حياتها الجافة، وعشها البارد، وزوجها الذي أدمن العمل حتى في الإجازات، وبيتها الشاهق في الحي الراقي ينظر إليه المارة

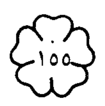


في رهبة فمالكه أحد رجال الأعمال والاقتصاد، تحولت كريات دمه إلى دراهم، وخلايا جسده إلى سبائك ذهب، وهي الأميرة الحالمة قد شغفت بحياة رومانسية وتدفقت برقة أنثوية تصب في مجرى عروقها كما الدم، تنهدت في حسرة، شعرت بأصابع صغيرتها الطرية تنغرس في جسدها البض وعينيها الغافيتين تسترخيان في عذوبة ملائكية.

وتمطر حبات دمعها فوق وجنتي الطفلة الناعمتين، لا تعرف يوماً أن قدرها قاسٍ قد توعدها بحياة خاوية وليالٍ كصقيع الشتاء القارص، من كانت طالبة في فريق التمثيل في المدرسة أبدعت في أدوارها الإنسانية، وتقمصت أحاسيس العذاب والفرح بفاعلية فريدة يشهد لها الجميع، تتحول الآن إلى تحفة صامتة تمتهن البروتوكول الاجتماعي والأتيكيت المتكلف داخل قصر فاره، لكنها في توحدها المشبع بالألم تتحدث إلى ذاتها عبر دفترها الخاص يختزن ذكرياتها لحظة بلحظة ويومياتها الفارغة من نسمات عاطفية تدغدغ أنوثتها المتفجرة، أرهقتها دعوات العشاء الرسمية وزوجات الأصدقاء المتبلدات، قد أطفأ بريق الماس رونق مشاعرهن الفطرية فاندثرت أحلامهن في صناديق الحلي والجواهر يضمرن الحسد لتلك الزوجة المرتوية حباً رغم عقد الخرز الرخيص يعربد فوق صدرها الفتي.

عادت لزوجها بعد أن تركت طفلتها في هدأة الأحلام راغدة.

(مازلت منشغلاً بأسعار البورصة؟)



تحاول ترطيب الأجواء الراكدة وتوهم نفسها أن ما يحدث أمراً بديهياً.

(غداً ستحتفل الروضة بتخريج الأطفال فقد وصلتنا دعوة خاصة لحضور الحفل، ما رأيك أن نذهب معاً، أعتقد أن سحر ستكون في غاية السعادة والسرور).

انتفض كمن رمته بتهمة:

«وهل تظنين أنه وضع يليق بي؟!»

لم تشأ الاستطراد في الحديث، اغتصبت من جوفها ابتسامة شاحبة وجلست تلاطفه، هدأ لكنه منزعج ربما ذاته المتشنجة بضوابط مملة تجعله في خصام دائم مع رغباته الأبوية الدفينة.

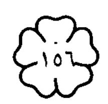
قالت وهي تدير قنوات التلفاز:

«دعنا نشاهد فيلماً رومانسياً قد رصدته اليوم من بين البرامج»

وكانت المشاهد مفعمة بالحياة، الزوجان منطلقان في قارب عبر النهر وحولهما أشجار الموز الكثيفة والشمس تتوارى خلف السحب يتناجيان بهمس وشوق.

تسأله البطلة «في أية سنة نحن؟»

يدفع زوجها (البطل) القارب بمجدافين يخترقان مساراً واحداً بانسيابية وعيناه شاهقتان نحو السماء:



«اشهدي يا سماء أني أحبها.. وأحبها للسنة السابعة والثامنة ووو...

وتصدح ضحكاتها المجنونة في فضاء أرجواني مفعم بالدفء والأغصان تتمايل ابتهاجاً بحبهما.

بدت (صفية) منشرحة الأسارير، تسبح خلجاتها في نشوة روحية استحوذت على مشاعرها، وترنو إليه بطرف خفي لتستقرأ أثر المشاهد عليه، وسريان وميض الشوق إلى عروقه، لكنه متململ، كان يتثاءب ضجراً، نهض متكاسلاً.

«سأذهب لأنام»

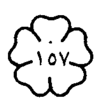
شدته من ذارعه مستاءة:

«اجلس أرجوك أوشك الفيلم على النهاية»

«كلام فارغ وسخيف!»

تمضي ساعاتها وحيدة فلغة الحوار بينهما متذبذبة، تجيش بها عاطفة مكبوتة أفقدتها التوازن والاستقرار، تنكمش إلى شرنقة الكآبة ينسجها تفكير سلبي وروح منهزمة فتأخذ في الصمت الممض والسكوت المخيف حينما يستجمع طاقتها المشحونة بالغضب فينفجر بغتة ويدمر كل بنيانها النفسي.

فاجأته ودون سابق إنذار قائلة:



«قررت الاستغناء عن الطاهية كي أفعل ذلك بنفسي».

مندهشاً:

«ولماذا، فالنساء يتمنين هذه الخدمة»

صرخت:

«لكني غير كل النساء».

اغتاظ:

«ولماذا تصرخين هكذا؟»

«لأنك لا تنظر إلا بمنظارك الخاص ولا تنتبه إلى احتياجاتي الخاصة ومعاناتي النفسية».

رد ساخراً:

«إنه التبطر على النعيم ليس إلا»

«إني أشعر بالبلادة، بالعجز، أكاد أشيخ وأذبل، فالحياة معك باردة، مملة، أبدو كدمية بلهاء».

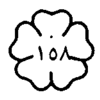
«لا أعتقد أنكِ في حالة سويّة»

«طلقني أرجوك».

حدجها بنظرة غاضبة:

«حاضر، سألبي طلبك»

هوت على المقعد باكية، لا تدري في أي بؤس وشقاء تحيا،



إنها كالزهرة تذبل يوماً بعد آخر وزوجها يحزم حقائبه ليسافر حيث موعد المؤتمر في باريس.

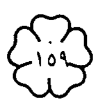
تركها فتات، نحر كل شرايين الحياة فيها فسقطت في دوامة اليأس والفراغ الملغوم بنوايا شريرة تشعلها الرغبة في الحياة لتصرخ بانفجارات جنونية سرعان ما تخبو وتتحول إلى سراب أمنيات.

هل تستسلم إلى هاوية «آنا كرنينا» وضياعها النفسي وخطيئتها المدمرة كما الرواية التي انشغلت وتشاغلت بها لتستفرغ من خبيئتها ندوب الحرمان تغزوها حتى العظم..

اكتأبت، وفقدت إحساسها بالحياة، نحل عودها، اصفر لونها، هي دائماً في شرود حزين وغياب مرير، وأقبلت على طبيب نفسي لتتعالج (هرموناتك مضطربة)، (الصحة مختلة)، تتفاوت أفكارك السوداء ما بين الانهيار والانتحار لأن مكوناتك قد تعطلت عن التفاعل والتوازن.. أقراص كالمخدرات شلت عواطفها، وجمد إحساسها، ترقد طوال اليوم في سريرها بعيداً عن ضوء الشمس، وطفلتها مهملة تتجاذبها أيادي الخدم برعاية جافة.

وبينما هي غافية تقفز طفلتها على الفراش وترقد إلى جانبها تناديها بتضرع:

«ماما.. ماما.. ضميني إلى صدرك».



ارتعش جفنيها المثقلين بالنعاس واستلت نوراً من روحها الخابية في غياب، احتضنت صغيرتها بذارعين متراخيين نضب منهما الدفء، لكن حرارة الطفلة دبت في أوصالها الباردة فهمست «حبيبتي، صغيرتي».

جاءتها الخادمة بطبق الحساء الذي تتناوله كعادتها كل مساء، تنحنحت الخادمة، ثمة ما يعتمل في صدرها ويحملها على الوقوف، وخطوها المتردد لكنها استجمعت شجاعتها وأردفت قائلة بإيمان وثقة:

«سيدتي، دعيني أتطفل على حياتك وأحشر أنفي في شأنك الخاص، أعلم أنكِ طيبة وحنون..

انتبهت (صفية) وتبدد عنها الوهن فاستعدلت في جلستها مدفوعة بفضول وترقب.

وتابعت الخادمة:

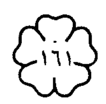
«لقد جئت أعمل هنا وقد تركت في بلدي أربعة أطفال وزوج عاجز، مشلول، وحجرة تنخرها الديدان والأمراض والجوع، وأنا شابة يافعة لا أملك قوت يومي، لكني أعرف أن المعاناة لا نتغلب عليها إلا بالعمل والكفاح وإحساسنا أننا ننجح في حياتنا رغم المصاعب، وأنتِ سيدتي تملكين كل هذه النعم، زوج مخلص لكنه مشغول باستمرار، فهل تتركين نفسك نهباً للمرض والوحدة



والضياع، ألا تستحق طفلتك أن تواصلي من أجلها الحياة، لا تدفعي السفينة إلى الغرق، غيري المسار فإن شواطئ الحياة كثيرة وحتماً ستصلين إلى برّ الأمان.

خرجت الخادمة وتركت سيدتها في حالة من الذهول، صاعقة زلزلت تفكيرها وأيقظتها من سبات الغفلة، صدقت الخادمة في حِكَمِها الثمينة، فلأغير المسار، لِما أفرض هذه العزلة على نفسي؟ الحرمان أغرقني في مشكلتي إلى درجة الاستغراق والتضخيم، قد لا أستطيع انتزاع جذورها لكن على الأقل التكيف مع الظروف طالما انشغلت بمشاعر إنسانية أخرى وانغمرت بالعمل والنجاح كي أسد هذا الفراغ الذي شرخ همتي، هل أقذف نفسي في دروب الضلالة والضياع فأخسر دنياي وآخرتي وأحمل فوق كتفي ما لا أطيق من أوزار وآثام؟ أم أستسلم لمشكلتي حتى الفناء والعدم؟ إنه التعويض الإيهامي، أظنه أفضل خيار.

اتصلت (صفية) بصديقتها (إلهام) التي طالما نصحتها بالخروج إلى الناس والانفتاح على المجتمع ومشاركتها في دورة تفسير القرآن الكريم، كانت صفية متباعدة، تهرب من المواجهة وكأنها تستلذ عذاب وحدتها المضنية، كان لابد أن تقرأ ذاتها بعقل الواقع لا بعواطفها الخاصة التي تجنح بها إلى عوالم شائكة، فمن يملك سعادة كاملة؟ هي عطشى للحب وغيرها عطش إلى الأمان وجائع إلى كسرة خبز.



جعلتها دروس القرآن والأخلاق في مهادنة مع نفسها لتخوض تجربة جديدة حتى تكتشف آثارها ونتائجها على روحها وحياتها فعمَّ السلام داخل البيت، وتخلصت من أقراص الدواء المضرة، وواجهت ذاتها بشجاعة ومرونة، وعندما ينتهي الدرس تجلس مع زميلاتها يثرثرن في مشاكلهن الزوجية وينفسن عن همومهن، إنها مجاذبات مباحة لنفوس تآلفت ببعضها فعبرت عن حزنها في صدق وشفافية، وعرفت أن هناك من تشتكي بخل زوجها، وأخرى خيانته، وثالثة إهماله، ورابعة فقره، وتذكرت المهمومين الذين ضاقت بهم الحياة فراح كل منهم إلى السوق يبيع همه للآخر ويشتري هم غيره، فرجع كل منهم بهمه الخاص قائلاً لنفسه «إن همه أقل من همَّ الآخر وأقل وطأة في النفس».

انفتح قلبها الأصم إلا عن هواه الخاص فكانت قنواته متشعبة تخترق فضاءات الحياة الأرحب، وجدت صفية في حب الناس وفي العطاء وحب الله روعة وإبداع وجمال دفعتها إلى حب زوجها بأسلوب آخر وبرمزية جديدة تتوافق مع طبعه ومزاجه، فهمت أنه لا يرغب أن تخنقه المرأة بالالتفاف المكثف حوله، إنه في حاجة إلى مساحة من الحرية، حينما تركته في محيطه الذاتي وجدت في عاطفته تجاوباً مريحاً بالرغم من تباعده، فالمؤثرات والضغوط تذبذب مزاجيته كيفما اتفقت الظروف حوله، وكتبت صفية هذه الليلة في دفتر يومياتها:



«حينما همس زوجي في أذني هذا المساء (أحبك) شعرت بها حـارة، مـتـدفـقـة بالعـاطفـة كـمطـر الشـتـاء يأتيـني بعـد طول انتظار..».

الفهرس